دلالة القرآن المبين

على أن النبي أفضل العالمين

تأليف

السيد العلامة المحدث

عبد الله بن الصديق الغماري

رحمه الله تعالى

اعتنى به

خادم العلم الشريف

أبـــو الفضل أحمد بن منصور قرطام

كان الله له ولوالديه ولمشايخه



الطَّبْعَــةُ الأولى

1437 هـ ـ 2016 م

ISBN: 978-9938-912-14-2

بين يدي القارئ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم وفهم وأنعم وكرم، وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم، أما بعد،،،

فإنا نلفت عناية القارئ الكريم أننا قد حرصنا بأن نطرح الكتاب على هيئته الأصلية التي صاغتها يد المؤلف رحمه الله، من غير زيادة أو نقصان، إلا ما كان من قبيل ترجمة المؤلف لكي يكون القارئ على بينة من هذا العالم الرباني، على أن لا يمتنع أن يُلاحظ بعض القُراءِ من العلماء وطلبة العلم الساعين للبحث عن الحق أن ما في الكتاب قد لا يتوافق مع آرائهم التي يحملونها، لذا نرجو من كل من يطلع على هذا الكتاب أن يتصفحه جيداً ويتدبر ما فيه من كيفية تنزيل الفروع على الأصول واستخراج الدليل، وتنزيله على الحكم، وأن يكون منصفاً للحق وأهله، وإذا ما وجد خطأً فليصلحه ويبين ذلك ولا يمس أصل الكتاب فقد قال الشاطبي في حرز الأماني:

وإن كـــــان خـــرقٌ فادركـــه بفضـــلة

مـــن الحـــلم وليصـــلحه مـــن جـــاد مقـــولا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلِّ اللّٰهُمَّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين

إعداد

المركز الوطني للبحوث والدراسات

آل البيت ـــ فلسطين

1 رمضان 1436 هجري الموافق 18 يونيو 2015 رومي

ترجمة موجزة للسيد الشريف العلامة الجليل
سيدي عبد الله بن الصديق الغماري الإدريسي الحسني

اسمه وكنيته:

هو سليل العترة النبوية الطاهرة الشيخ العلامة المحدث الفقيه الأصولي المفسر اللغوي المسند الشاعر الحافظ المجتهد وريث المعقول والمنقول وحيد عصره وسيد مصره وولي الله الصالح بلا نزاع سيدي ومولاي أبو الفضل عبد الله ابن العلاَّمة أبي عبد الله شمس الدين محمد ابن الولي الكبير سيدي محمد الصديق الغماري الطنجي.

نسبه:

يعود نسبه من جهة الأب والأم إلى سيدنا إدريس الأصغر ابن مولانا إدريس الأكبر فاتح المغرب ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن سيدنا علي وفاطمة عليهما السلام كما هو مدون في كتب التراجم وأمه حفيدة الولي الصالح سيدي أحمد بن عجيبة شارح الحكم العطائية.

مولده:

وُلد رحمه الله تعالى يوم الخميس غُرَّة رجب الفرد 1328 هجري الموافق له 7 يوليو 1910 رومي بثغر طنجة.

نشأته ورحلاته:

نشأ في رعاية والده رحمه الله فتعلم على يديه مبادئ العلوم الشرعية وبه تأسس واستأنس وكرع من حياضه وتأدب بآدابه، وبحضرته جالس العلماء الأفذاذ والصالحين فحفظ القرءان ثم شرع في حفظ بعض المتون ومعظم منظومة الخراز المسماة "مورد الظمآن" وجملة كبيرة من الألفيّة، والأربعين نووية، والأجرومية، قرأ بلوغ المرام، ومختصر الشيخ خليل، ثم قرأ شرح الأزهري على الأجرومية على أخيه أبي الفيض، وحلّ قبل ذلك عباراتها حلا موجزًا على خاله السيد أحمد بن عبد الحفيظ بن عجيبة.

الرحلة إلى فاس:

ثم سافر إلى فاس بأمر والده لطلب العلم في جامعة القرويين وهي من الجامعات المعدودة في العالم الإسلامي مثل الزيتونة والأزهر والنظامية فقرأ فيها اثني عشر فنا من الفنون الشرعية المتعارف عليها في تلك الجامعات العريقة ـ والتي يؤمر بتحصيلها كل عالم ـ مثل: شرح المكودي مع حاشية ابن الحاج و شرح ابن عقيل وحاشية السجاعي وشرح الخرشي على مختصر خليل وشرح البخاري للقسطلاني والمحلي على جمع الجوامع في الأصول والتوحيد لابن عاشر ورسالة الوضع وشرح القويسني على السلم.

وفي أثناء إقامته في فاس اجتمع بالسيد محمد بن جعفر الكتاني، وأجازه السيد مهدي العزوزي الذي يروي عن السيد مرتضى الزبيدي المتوفى سنة 1205 هجري بواسطتين.

ثم رجع إلى طنجة بعد أن كرع وتضلّع وصار مقدّمًا على جميع أقرانه فدرّس بالزاوية الصديقيّة واجتمع عليه الناس وظهرت عليه آثار الصلاح والتحقيق والنظر ا.هـ.

الرحلة إلى مصر:

وفي أواخر شهر شعبان سنة 1349 هجري الموافق له 1930 رومي سافر إلى مصر والتحق بالأزهر الشريف ومن الجدير بالذكر انه حل عليه عالماً متضلعاً متقناً دون أن يُظهر ذلك تواضعاً للعلم وأهله وطاعةً لوالده تكسوه آداب طالب العلم فكرع من حياض العلم التي تجعل من طالب العلم في عرف الأزهر عالما وهو ما لا بد من تحصيله قبل التصدر للعلم في مصر ومما يعرف في مصر أن المتصدر للعلم إن لم يشهد له الأزهر بذلك لا تقبل أقواله وهذا مما هو جلي في مصر والزيتونة في تونس فقرأ شيخنا شرح الملوي على السلم وحاشية الصبّان وجمع الجوامع بشرح المحلي والرسالة السمرقنديّة في آداب البحث والمناظرة وشرح الأسنوي على منهاج الأصول للبيضاوي وتهذيب السعد بشرح الخبيصي في المنطق.

ثم اتجه للفقه الشافعي تنفيذًا لأوامر والده فحضر في المنهج للشيخ زكريا وشرح الخطيب على أبي شجاع وحضر دروس الشيخ محمد بخيت المطيعي في التفسير والهداية في الفقه الحنفي وفي حاشيته على شرح الأسنوي على منهاج الأصول وأجازه إجازة عامة.

ولمزيد حرصه على تحصيل العلوم الشرعية كان يؤم بيوتات العلماء وكذلك نزولا عند رغبة والده ألا يدع عالما إلا ويجلس بين يديه فسخرت له الأسباب وفتحت له الأبواب وكان مقبولا عند الخواص والعوام ويدل ذلك على صلاحه وعلو كعبه ودرجة القبول، وتقدّم لامتحان العالمية (عالمية الغرباء) فحصل عليها، ثم حصل على عالمية الأزهر والامتحان فيها في اثني عشر فنًّا فنجح بدرجة ممتاز حتى أن شيخ الأزهر قال عنه: "إن الأزهر ليفتخر بحصول الشيخ عبد الله على شهادة العالمية ".

تدريسه:

درّس شيخنا رحمه الله جمع الجوامع بشرح المحلي وشرح الملوي على السُّلَّم، وسُلَّم الوصول إلى علم الأصول لابن أبي حجاب، والجوهر المكنون في البلاغة للأخضري، وشرح المكودي على الألفيّة، وتفسير النسفي، والأحكام للآمدي، والخبيصي على تهذيب السعد في المنطق، وتفسير البيضاوي.

شيوخه:

تلقى شيخنا صاحب الترجمة العلوم على أكثر من مائتي عالم نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

شيوخه من المغرب:

1- والده الإمام العلامة العارف بالله تعالى القدوة الشيخ سيدي محمد بن الصديق الغماري الحسني الإدريسي.

2- شقيقه العلامة الحافظ المجتهد السيد أحمد بن محمد بن الصديق الغماري.

3- العلاّمة الشيخ القاضي العبّاس بن أبي بكر بناني.

4- العلاّمة أبو الشتاء بن الحسن الصنهاجي.

5- العلاّمة عبد الله الفضيلي.

6- العلاّمة السيد عبد الرَّحمن بن القرشي العلوي.

7- الشريف الحبيب المهاجي.

8- المحدث عبد الحي الكتاني.

9- العلاّمة السيد محمد المكّي بن محمد البطاوري.

10- السيد المهدي بن العربي بن الهاشمي الزرهوني.

11- الملك إدريس بن محمد المهدي ابن العلاّمة محمد ابن علي السنوسي الشريف الحسني.

12- القاضي المسند الكبير عبد الحفيظ بن محمد بن عبد الكبير الفاسي الفهري.

13- العلاّمة الأثري الصوفي أبو القاسم بن مسعود الدبّاغ.

14- العلاّمة المحدّث السيّد محمد بن إدريس القادري الحسني الفاسي.

تونس:

شيخ جامع الزيتونة الشيخ طاهر بن عاشور التونسي المالكي.

مصر:

1- الشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي.

2- مسند العصر الشيخ أحمد بن محمّد بن عبد العزيز ابن رافع الحسيني الطهطاوي.

3- الشيخ محمد إمام بن برهان الدين إبراهيم الشهير بالسقّا الشافعي.

4- الشيخ محمد بن إبراهيم الحميدي السمالوطي المالكي.

5- الشيخ أحمد بن محمد بن محمد الدلبشاني الموصلي القاهري.

6- السيد بهاء الدين أبو النصر بن أبي المحاسن القاوقجي الطرابلسي.

7- الشيخ محمد الخضر بن حسين التونسي.

8- العلاّمة الشيخ محمد دويدار الكفراوي التلاوي الشافعي.

9- الشيخ عبد المجيد بن إبراهيم بن محمد اللبّان.

10- عبد الواسع بن يحيي الصنعاني اليمني.

11- الشيخ محسن بن ناصر باحربه اليمني الحضرمي الشافعي.

12- الشيخ عبد الغني طموم الحنفي.

13- الشيخ محمد بن إبراهيم الببلاوي المالكي.

14- الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري.

15- الشيخ محمد بن حسنين بن محمد مخلوف العدوي المالكي.

16- الشيخ عبد المجيد الشرقاوي.

17- الشيخ محمد عزت.

الحجاز:

1- الشيخ المحدث عمر حمدان المحرسي.

2- الشيخ المحدث عبد القادر بن توفيق الشلبي الطرابلسي.

3- الشيخ المعمّر محمد المرزوقي بن عبد الرَّحمن أبو الحسين المكّي الحنفي.

4- العلاّمة عبد الباقي بن ملاّ علي بن ملاّ محمد معين اللكنوي الأنصاري المدني الحنفي.

الشام:

1- الشيخ محمد سعيد بن أحمد الفرا الدمشقي الحنفي.

2- العلاّمة الورع بدر الدين بن يوسف الحسني الدمشقي الشافعي شيخ دار الحديث بدمشق.

3- الأستاذ الشيخ عبد الجليل بن سليم الذرا الدمشقي.

4- الشيخ محمد راغب بن محمود الطبّاخ الحلبي الحنفي.

5- الشيخ يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني الشافعي البيروتي.

6- الشيخ عطاء بن إبراهيم بن ياسين الكسم الدمشقي الحنفي.

شيوخه من النساء:

أم البنين آمنة بنت عبد الجليل بن سليم الذرا الدمشقيّة.

مـؤلفـاتـه:

أَلَّف شيخنا رحمه الله العديد من المصنفات، كلها نافعة نفيسة مفيدة، تدل على بعد نظره وعمق غوصه على عويص المسائل، مما جعله يلحق بركب السلف من حيث الفهم والاستدلال وطريقة التأليف، بل فاق الكثير منهم، والدليل على ذلك أنه ألف كتباً لم يُسبق إليها، وله مؤلفات قل نظيرها، منها:

1- رفع الإشكال عن مسألة المحال.

2- تمام المنة ببيان الخصال الموجبة للجنة.

3- التّوقّي والاستنـزاه عن خطأ البناني في معنى الإله.

4- بِدَع التفاسير.

5- ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة.

6- الفوائد المقصودة ببيان الأحاديث الشاذة المردودة.

7- أمنية المتمني في تحريم التبني.

8- حسن التفهم والدرك لمسألة الترك.

9- إعلام الراكع الساجد بمعنى اتخاذ القبور مساجد.

10- كيف تشكر النعم.

11- إعلام النبيل بجواز التقبيل.

12- اتحاف الأذكياء بجواز التوسل بالأنبياء والأولياء.

13- الرد المحكم المتين على كتاب القول المبين.

14- كمال الإيمان بالتداوي بالقرآن.

15- الحجج البينات في إثبات الكرامات.

16- نهاية التحرير في حديث توسل الضرير.

17- المعارف الذوقية في أذكار الطريقة الصديقية.

18- الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام.

19- حسن التلطف في بيان وجوب سلوك التصوف.

20- الأحاديث المختارة في الأخلاق والآداب المسمى الغرائب والوجدان.

21- النفحة الإلهية في الصلاة على خير البرية.

22- سمير الصالحين.

23- أولياء وكرامات النقد المبرم لرسالة الشرف المحتم.

24- سلسلة الطريقة الشاذلية الصديقة.

وله أقوال انفرد بها عن كثير من العلماء، وله تحقيقات لم يُسبق إليها مع تواضع قلَّ نظيره، ومن صور تواضعه التي تدل على صلاحه، تنبيهه على أخطائه التي وقع فيها وتراجعه عنها.

طلابه:

مما يجدر الإشارة إليه أنه لا يوجد اليوم على البسيطة من عالم معتبر يشار إليه بالبنان من أهل السنة والجماعة وغيرهم إلا ويكون جلس بين يديه أو انتفع بكتبه فمنهم من حفظ الأمانة وأعطى الشيخ حقه وأحال إلى كتبه ومنهم من ضيع الأمانة ونسب الأقوال إلي نفسه أو لم يحل إلى كتب الشيخ.

مواقفه:

للشيخ رحمه الله عدة مواقف فمنها ما هو علمي حيث تصدى لكثير من الآراء التي لا تصلح أن تصدر من عامي زيادة على أن تصدر من عالم كموقفه من نزول سيدنا عيسى عليه السلام راداً فيها على أحد كبار مشايخ الأزهر، وكذلك رده على البناني في معنى الإله.

وكذلك رده على القائلين بالهجر بلا علة لازمة والهجرة إلى بلاد الكفار، وكذلك على عدم فهم كثير من المعاصرين علة تحريم نساء أهل الكتاب وكثير من هذه المواقف العلمية مما يطول ذكرها.

وأما ما ابتلي به الشيخ من علماء السوء فيصعب أن يتحمله إنسان ويكفي في ذلك محنته التي أودت بالشيخ إلى السجن الانفرادي مدة خمسة عشر سنة تقريبا مع الكيد ومحاولة إعدامه ولكن الله ناصر أوليائه وهو يفعل ما يشاء ويختار وتلك سنة الأنبياء والمرسلين وذلك نهج الأولياء والصالحين.

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى يوم الجمعة 19 شعبان 1413 هجري الموافق له 12 فبراير 1993 رومي، ودُفن بجوار والده رحمه الله تعالى بالزاوية الصِّدِّيقية، الكائنة بشارع القادرية بمدينة البوغاز المعروفة بطنجة في شمال المغرب.

نفعنا الله بعلومه وأفاض علينا من بركاته

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلِّ اللَّهُمَّ على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

هـــــــذا كتـــــاب دلالـــــــة القـــــرآن

أوضـــــحت فيـــــه حقـــــائق التبيـــــان

وجعلتـــــــه وضـــــعاً رصـــــيناً شـــــيدت

صـــــــفحاته بنواصـــــــع البرهـــــــان

ينبيـــــك عــــن قـــــدر النــــبي وفضـــــله

بســـــواطع جـــــاءت مـــــن الفرقـــــان

فـــــاق الشـــــفا ومواهبـــــاً في بحثـــــه

وأجـــــاد في ســـــبكٍ وحســـــن بيـــــان

والله أرجـــــــو ســـــــائلاً بكتابـــــــه

ونبيـــــه أجـــــراً بـــــلا حســـــبان

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق بشيراً ونذيراً، وجعله داعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً، اختصه بالقرآن المتضمن لقواطع الحجة ونواصع البرهان، والمشتمل على حقائق العلوم ودقائق العرفان، وميّزه بجوامع الكلم وفصاحة اللسان، وفضَّله على جميع مخلوقاته من مَلك وإنسٍ وجان، ختمت به الرسالة، فسلمَ من الجهالة وهدى من الضلالة، وبصَّر من العَمايةِ وأرشد من الغواية، فتحَ الله به أعيناً عمياً وقلوباً غلفاً وآذاناً صُماً، فرض على الناس طاعته، وأوجب عليهم محبته شرح صدره ورفع ذكره وأعلى قدره وخلد شريعته وأبقى على وجه الزمان معجزته، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وزاده رفعة ومكانة لديه ورضي عن آله الأكرمين، وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

فهذا كتابٌ أردت أن أذكر فيه الآيات التي تفيد عِظَمَ قدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلو رتبته بصريح العبارة أو بطريق الإشارة أو التضمن أو الموازنة أو غيرها من الطرق التي نبينها فيما بعد بحول الله تعالى.

وقد رأيت في هذا الموضوع كتاب (المدحة الكبرى من الكلام القديم) فوجدته قد أجاد على توسعٍ كبيرٍ في معظمه، وإعوازٍ كثيرٍ في مواضع منه وطالما تشوفت إلى تأليف كتاب من هذا النوع، أخدم به الجناب النبوي ويكون وسيلة لي عند الله تعالى يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ومن الخل الوفي، حتى وفقني الله – وله المنة- إلى إنشاء هذا الكتاب الذي أرجو إن تمَّ أن يكون وافياً في بابه، جامعاً لخلاصة البحث

ولبابه، على إعوازٍ في المواد، وعدم الاستعداد إذ لم يكن لدي حين كتابته سوى حاشية الصاوي على تفسير الجلالين[1]، مع تكدر الخاطر وتبلبل الفكر بهذه المحنة التي ضاقت واشتدت وطالت حتى كادت تقضي على كل أملٍ في النجاة منها لولا ثقتي برحمة الله وقرب فرجه مع إيماني بصدق وعده حيث يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾"الشرح: 5-6"، فلا بُد من يسرٍ بعد هذا العسر، ومن فرجٍ يَعقبُ هذه الشدة، والله المسئول أن يقبل هذا ويجعله سبباً في التعجيل بالفرج والتيسير، إنه قريب مجيب وهو على ما يشاء قدير.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الأكرمين.

هذه تعليقات على كتاب (فضائل النبي في القرآن) تتمم مباحثه، وتشرح بعض ما غمض فيه، وهي وسط بين الإيجاز والإطناب وفقنا الله فيها لإصابة الصواب.

1 – ثمّ تيسر لي بعد تسويده الاطلاع على تفسيري الكشاف والبيضاوي فنقلت منهما أثناء تبيضه ما يراه القارئ في مواضعه منه.

مقدمة

تخصيص النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإتيانه القرآن العظيم تشريفٌ يفوق ما أوتي النبيون من كتبٍ ومعجزات، إذ كان ما أوتوه عليهم السلام لا يعدو أن يكون خارقاً من الخوارق ينتهي بانتهاء زمانه، أو تشريعات ووصايا تختص بقبيلٍ من الناس لا تجاوزهم إلى غيرهم، أما القرآن: فهو معجزة الدهر وكتاب الزمن ودستور الحياة في شتى نواحيها، يُعلمُ الإنسانية ويأخذ بيدها إلى حيث رُقيها وسعادتها، يصحح ما أخطأ فيه كبار الفلاسفة والمفكرين من الحقائق الكونية، ويُقَوِّمُ ما انحرف عنه زعماء المتدينين من العقائد الدينية، يساير التقدم العلمي ويدعو إلى تحرير الفكر والعقل من أغلال التقليد وأوهام الجمود، أسَّسَ من النظم والقوانين ما لم يصل إليه فقهاء التشريع في القديم والحديث، وسنَّ مناهج للأخلاق وآداب السلوك، قصرت عنها أنظار علماء الاجتماع في أرقى الأمم حضارة، في شرق الأرض وغربها، يضاف إلى هذا فصاحة أسلوبه، وسلاسة ألفاظه وتراكيبه، وروعة تصويره، وأخذه بمجامع القلوب، وامتلاكه للنواصي والألباب، وإنك لتجد البون شاسعاً بينه وبين سائر الكتب[1] المنزلة، القديم منها والجديد، فإذا وازنت التوراة -وهي كتاب العهد القديم- بأسلوبها وأحكامها وتعاليمها ووصاياها وما فيها من قصص وتواريخ بسورة من سور القرآن، أدركت الفارق الكبير بين الكتابين! وكأنك بهذه الموازنة تقيس نور

1- وهي غير معجزة، كما صرح به الزمخشري في الكشاف، إذ الإعجاز خاص بالقرآن من بين سائر الكتب السماوية، على أن الإنجيل عبارة عن مواعظ ووصايا، ألقاها عيسى عليه السلام على أتباعه، عقب نزولها عليه من غير أن تدون في كتاب، والأناجيل الموجودة عند المسيحيين من تأليف بعض الحواريين كتبوا فيها سيرة عيسى بعد رفعه بمدة طويلة، ولهذا يوجد بينها تناقض واختلاف.

شهاب من تلك الشهب التي تعترض في الأفق لامعة ثم تنطفئ - لا يكاد يشعر بها أحد، إلا من كان يرصد حركاتها لغرض من الأغراض- بنور الشمس الذي يضيء الدنيا، ويبعث الحرارة في الكون، ويسرى مع شعاعه الحياة والنضج، ويذهب ظلام الليل وما حواه من ظلمات وأوهام.

ومن هنا قال الله تعالى لنبيه -يمتن عليه-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾"الحجر: 87" أي خصصناك بهذا الكتاب وشرفناك به وذخرناه لك، ولم ننزله على إبراهيم وموسى وعيسى؛ لأنهم – وإن كانوا رسلاً مكرمين- لم يصلوا إلى رتبتك، ولا حاموا حول منزلتك، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾"العنكبوت: 51"، قال الزمخشري: "أو لم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين، هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل آية بعد كونها، وتكون في مكان دون مكان، إنَّ في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة لا تشكر[1]، وتذكرة لقوم يؤمنون" ا.هـ.

فإذا نظرنا إلى ما في القرآن من دلائل خاصة تقتضي علو قدره عليه الصلاة والسلام مضافاً إلى ما سبق انتهينا إلى نتيجة ذات وجهين متلازمين:

أحدهما: أنه عليه الصلاة والسلام أفضل المخلوقات يقيناً لا يدخله احتمال، إذ ليس من المعقول أن ينزل ذلك الكتاب العظيم على شخص يكون في عالم الوجود من هو أفضل منه.

1- أي لا يقدر على شكرها، لعظم النعمة بها عظماً يجل عن الشكر.

ثانيهما: القطع بخطأ من فضَّل عليه الملائكة وهو ابن حزم، أو فضَّل عليه جبريل عليه السلام وهو الزمخشري؛ لأن القرآن بجملته وتفاصيله، تشريفٌ لم ينله مَلكٌ ولا رسول؛ ولأن في آياته وبعض سوره ما يفيد تفرد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمناقب لم يعطها جبريل عليه السلام.

وإيضاح هذه النتيجة بوجهيها هو مقصدنا من هذا المؤلف الذي اعتمدنا فيه على فضل الله، وعلى ما يفتح به في فهم آيات كتابه، وهو مما مُنِحناهُ في هذه المحنة التي نرجو من الله تفريجها عاجلاً، بقي **وجه ثالث** يلحق بالوجهين السابقين وهو: أن المفاضلة بين بقية الأنبياء والملائكة ظنية؛ لأنها لا تستند لدليل قاطع، فنحن نعتقد أن الأنبياء عليهم السلام أفضل من الملائكة ولكن لا نقطع بذلك ولا نجزم به كما لا نقطع بخطأ من فضل عليهم الملائكة وهم ابن حزم والمعتزلة وكثير من الأشعرية، منهم الإمام الرازي في بعض كتبه؛ لأن بعض الأدلة يقتضي ذلك مثل قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾"النساء: 172"، فهذه الآية تفيد أفضلية الملائكة على عيسى عليهم السلام، وإن أجاب عنها علماء الأشعرية"[1]"، وأمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام يقتضي أفضليته عليهم كما استنبطه بعض علماء المالكية حسبما بينته في قصة آدم عليه السلام، فالقطع بتفضيل أحد الطرفين على الآخر لا يمكن، وإنما هو ظن غالب يتجه إلى هذا الجانب أو ذاك، وقد نص الأشعرية وغيرهم على هذا،

1- والذي أعتقده في خاصة نفسي -وهو الصواب إن شاء الله- أن الملائكة أفضل من الأنبياء غير إبراهيم وموسى عليهم السلام، أما الأول فإن الله تعالى اختصه بالخلة، وأما الثاني فإن الله تعالى كلمه تكليماً، وبذلك كانا أفضل من الملائكة.

لكن لم يصرحوا بأن أفضلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم قطعية فيما أعلم، ولعلهم لم يتفطنوا لما أثبتناه في هذا الكتاب إلا أن الإمام الرازي لما حكى الخلاف في المفاضلة، ورجح تفضيل الملائكة، استثنى النبي عليه الصلاة والسلام من الخلاف، وقال: إنه أفضل من الملائكة وغيرهم بلا نزاع، فقد يُفهم منه أن أفضليته عليه الصلاة والسلام قطعية، وفي الجوهرة.

وأفضلُ الخلق على الإطلاق نبينا فمِلْ عن الشقاق

هذا ومن الشذوذ بمكان ما نقله العارف الشعراني في الباب الرابع عشر من المنن الكبرى حيث قال: "وقع في سنة إحدى وأربعين وتسعمائة أن شخصاً زعم أن إبراهيم أفضل من النبي صلى الله عليه وآله وسلم مستنداً إلى تعليمه عليه الصلاة والسلام للصحابة الصلاة الإبراهيمية حين سألوا: كيف نصلي عليك؟ بناءً على قاعدة أهل المعاني من أن المشبه به أعلى من المشبه" ثم قال -بعد كلام في الرد عليه-: "وقد انتصر علماء مصر، وصنفوا في الرد على هذا الشخص -بتقدير ثبوت ذلك عنه- كسيدي محمد البكري، وسيدي محمد الرملي، وناصر الدين الطبلاوي، والشيخ نور الدين الطندتاني وقرئت تلك المصنفات على رؤوس الأشهاد بحضرة خلائق لا يحصون"، قلت: يظهر أن ذلك الشخص كان ضعيفاً في علم المعاني، إذ من المقرر فيه أن الغرض من التشبيه إلحاق الأدنى بالأعلى نحو زيد كالبدر، أو إلحاق متأخرٍ بسابق في معنى من المعاني من غير ملاحظة تفاوت بينهما فيه، والصلاة الإبراهيمية من هذا القبيل، إذ أن معناها: اللّهُمَّ صلِّ على محمد كما حصلت منك الصلاة على إبراهيم، وليس هنا أدون ولا أعلى؛ لأن الصلاة على إبراهيم منشؤها نبوته لا أفضليته، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي

الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾"النور: 55"، شبه الله في هذه الآية استخلاف الأمة المحمدية باستخلاف اليهود قبلهم من غير نظر إلى التفاوت بين الاستخلافين مع أن استخلاف الأمة المحمدية -وهي المشبه- أعم وأكمل من استخلاف اليهود المشبه بهم، وهذا واضح لا خفاء فيه، فاستشكال التشبيه في الصلاة الإبراهيمية، أو أخذ أفضلية إبراهيم منه، ناشئٌ عن ضعفٍ في علم المعاني، أو نسيان لقواعده، وحكى الشعراني أيضاً في طبقات الأولياء عن العارف أبي المواهب الشاذلي أنه قال: "وقع بيني وبين شخص من الجامع الأزهر مجادلة في قول صاحب البردة:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

وقال: ليس له دليل على ذلك، فقلت له: قد انعقد الإجماع على ذلك، فلم يرجع، فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالساً عند منبر الجامع الأزهر وقال لي مرحباً بحبيبي، ثم قال لأصحابه: أتدرون ما حدث اليوم؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: إن فلاناً التعيس يعتقد أن الملائكة أفضل مني، فقالوا بأجمعهم: ما على وجه الأرض أفضل منك، فقال لهم: فما بال فلان التعيس يعتقد أن الإجماع لم يقع على تفضيلي ؟! أما عَلِمَ أن مخالفة المعتزلة لأهل السنة لا تقدح في الإجماع؟!"، قلت: وقع من بعض المتحذلقين أقبح من هذا فقد رأى تأليفي (الأحاديث المنتقاة في فضائل سيدنا رسول الله)، وهو كتاب انتقيته من الأحاديث الصحيحة، فاستعاره مني، ولما رده بعد قراءته قال لي: أنت إمامٌ في تأييد الخرافات، فاعتبر الأحاديث الصحيحة الثابتة في فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي ذكر بعض معجزاته خرافات، وهذا مما دعاني إلى التعجيل بتأليف هذا الكتاب الذي سميته (دلالة القرآن المبين على أن النبي أفضل العالمين) وسيجد القارئ فيه ما يجدد

إيمانه، ويقوي عقيدته ويفحم به مناظره إن كان لا يقنعه الإجماع، ولا يلتزم السنة. ويجب أن أشير إلى أمرين هامين:

الأول: قد يظن بعض الناس أن أفضلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليست ذات أهمية في الدين، وهذا خطأ كبير ممن يظنه، بل لها أهمية كبرى؛ لأن تصحيح العقيدة يتوقف عليها لا سيما في هذا العصر الذي كثر فيه الجهل بالدين أصوله وفروعه، ولقد سُئل بعض أهل العلم مرة: ما الدليل على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من نوح عليه السلام؟ مع أن نوحاً لبث يدعو إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً بنص القرآن فلم يسعفه علمه بدليل، وقال لي بعض الصحفيين مرة: أنا أعتقد أن عيسى أفضل من النبي عليهما الصلاة والسلام، قلت: لم ذلك؟ قال: لأن عيسى ولد من غير أب، فلم يكن من النطفة المستقذرة، قلت له: فعلى هذا تكون ناقة صالح عليه السلام أفضل من عيسى أيضاً؛ لأنها خرجت من صخرة، ولم تخرج من الفرج الذي هو مخرج البول! ولو كان التفضيل منوطاً بهذا، كان آدم عليه السلام أفضل الرسل على الإطلاق؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم، فلم تقذفه نطفة ولا ضمه رحم؛ ولأنه عاش ألف سنة كما في الصحيح، دعا فيها أولاده إلى الله تعالى، ولكن التفضيل في الحقيقة منوط بخصال الكمال التي يتحلى بها النبي مع المزايا التي يهبها الله تعالى له، على هذا الأساس يتفاضل الرسل والأنبياء وغيرهم، وهذا الأساس نفسه هو مبنى أفضلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أما خصال الكمال التي كان يتحلى بها فينبئ عنها قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾"القلم: 4"، ولم يثن بهذا على نبي ولا رسول، فأفاد أنه متفرد بهذا الخُلق، وسئلت عائشة رضي الله عنها: كيف كان خُلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقالت: "كان خُلقه القرآن""رواه الطبراني"،

ومعنى هذا الجواب الوجيز الجامع: أن ما في القرآن الكريم من أخلاق وآداب وفضائل ومكارم يتمثل في شخصه عليه الصلاة والسلام، ولذا قال البوصيري رحمه الله تعالى:

فاق النبيينَ في خَلْق وفي خُلُقٍ ولم يدانوه في علم ولا كرم

وأما المزايا التي وهبَهُ الله إياها فكثيرة مثل: دفاع الله عنه، وندائه بوصف النبوة والرسالة، ونهي المؤمنين أن ينادوه باسمه المجرد، وتجنيد الملائكة للقتال معه، وإنذارهم على لسانه، وعموم بعثته، وختمه للنبوة، وإقسام الله بحياته، وغير ذلك مما يتحدث عنه هذا الكتاب.

ولا شك أن إثبات هذه المزايا وتلك الأخلاق له صلى الله عليه وآله وسلم واعتقاد اتصافه بها واجبٌ شرعاً تتوقف عليه صحة عقيدة المسلم كما صرح به العلماء؛ لأن كتاب الله تحدث بها في صراحة ووضوح بله السنة المتواترة والإجماع عليها من الأمة بجميع فرقها، وهذا معنى أفضليته عليه الصلاة والسلام؛ لأننا نعلم أنه لا يوجد نبيٌ ولا رسولٌ ولا ملكٌ جمع هذه الصفات كلها غيره، وإذاً فلا يوجد من يساويه، فضلاً عن أن يفوقه، ومن هنا قطعنا بأفضليته عليه الصلاة والسلام كما قطعنا بخطأ من فضل الملائكة أو الرسل عليه، وهو - أعني من فضَّل ملكاً أو رسولاً عليه- إما متناقض لاعتقاده ثبوت معنى الأفضلية له صلى الله عليه وآله وسلم مع إثبات لفظها لغيره، وإما غافل عن أن ثبوت المعنى لشيء يلزمه ثبوت اللفظ لذلك الشيء ضرورة أن اللفظ لازم للمعنى وتابع له.

الثاني: قد يقال: جاءت أحاديث تفيد عدم أفضلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي قوله عليه الصلاة والسلام لمن قال له: يا خير البرية فقال رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم: (ذاك إبراهيم عليه السلام)"رواه مسلم"[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام: (ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)"متفق عليه"، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (يصعق الناس حين يصعقون، فأكون أول من قام، فإذا موسى آخذ بالعرش، فما أدري أكان فيمن صعق)"رواه البخاري"، وقوله عليه الصلاة والسلام -من حديث- (فعرفت فضل علمه بالله عليّ)"رواه البزار" يعني جبريل عليه السلام، ولنا في الجواب عن هذه الأحاديث مسلكان:

الأول: الترجيح، وذلك أن الأحاديث المذكورة أخبار آحاد، والأفضلية ثابتة بالقرآن والسنة المتواترة والإجماع، فتكون راجحة بلا نزاع.

الثاني: الجمع، وهو من وجهين:

أحدهما: أن تلك الأحاديث خرجت مخرج التواضع مع الإشارة إلى حفظ رتبة يونس عليه السلام، حتى لا يتسرب إلى النفوس ما يغض من مقامه الكريم بالنسبة لما حصل له، على أن حديث الصعق لا علاقة له بالأفضلية؛ لأن موسى عليه السلام إن كان لا يصعق يوم القيامة مجازاة له بصعقة يوم الطور فالأمر واضح، وإن كان يصعق ويفيق أول واحد فتلك ميزة حقاً؟ يقابلها من جانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك اليوم مزايا: أهمها الشفاعة العظمى التي يتأخر عنها موسى نفسه، ويتقدم لها نبينا صلى الله عليه وآله وسلم تتلوها شفاعات منه مقبولة حتى يقول له مالك خازن النار: ما تركت لغضب ربك في أمتك من بقية""رواه الحاكم"، وحتى يناديه ربه: "فقيل لي: هل رضيت؟ فقلت: رب رضيت""رواه الحاكم"، ثم تقدُّمهُ لباب الجنة يستفتحها، فيقول له خازنها: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك.

1- هذا الحديث يفيد أنه أفضل الخلق بعد نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، ثم يليه موسى عليهما السلام.

ثانيهما: أن تلك الأحاديث صدرت من النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يعلمه الله بأفضليته عنده، بيان ذلك: أن الله تعالى والى إفضاله على نبيه وقتاً بعد وقت، ولحظة بعد لحظة، فكان أول ما قال له في الإنذار: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ "الشعراء: 214"، ثم ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾"الأنعام: 92"، ثم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾"سبأ: 28"، ثم صرف إليه الجن وبعثه إليهم أيضاً، ثم عمم بعثته فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾"الفرقان: 1"، ثم أسرى به وأراه من آياته ما زاده رفعة وعلواً، ثم لمَّا أمره بالجهاد أمر الملائكة بأن يجاهدوا معه ويكونوا من جنده، وهكذا كلما مرت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحظة زاد في نفسه فضلاً ونال من مولاه موهبة، وكلما نزلت عليه آية أو سورة ازداد بها علماً وقرباً، فكان علمه بأفضليته على المخلوقات متأخراً عن صدور تلك الأحاديث منه، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم بعدها: (أنا سيد ولد آدم)"رواه مسلم"، وقال أيضاً: (أني قمت من الليل فتوضأت فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي فاستثقلت، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال: يا محمد قلت: لبيك رب، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري رب، قالها ثلاثاً قال: فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلى لي كل شيء وعرفت) "رواه الترمذي" الحديث، وهو صريح في أن الله تجلى عليه بصفة العلم، فكشف له عن كل معلوم، وبناء عليه يكون أعلم من جبريل عليه السلام[1] ولما شمُسَ البراق

1. هذا الحديث يرد ما أفاده كلام الغزالي في أواخر كتاب التفكر من الإحياء، من أعلمية الملائكة المقربين على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال -أثناء بيان تفضيل المخلوقات في العلم- وكل ما عرفناه قليل نزر حقير، بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء وما عرفوه قليل نزر حقير،

حين أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ركوبه ليلة الإسراء قال له جبريل: "أبمحمد تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه، قال: فارفض عرقا"رواه الترمذي"، وجبريل ركب البراق مع الأنبياء، فهذه شهادة منه بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل منه ومن الأنبياء عليهم السلام.

تنبيه: حديث (فعرفت فضل علمه بالله عليّ) رواه البزار من حديث أنس، وفي محفوظي أن إسناده ليس على شرط الصحيح، وبقية الأحاديث المذكورة كلها صحيحة وبالله التوفيق.

بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما عرفوه قليل، بالإضافة إلى ما عرفه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفه الملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهم ا هـ. وهذا خطأ لا ندري كيف وقع فيه؟ وقد رد عليه القطب الكبير عبد العزيز الدباغ في كتاب الإبريز.

1- سورة البقرة

قال الله تعالى:﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾"البقرة: 2-4" الآية، جعل الله الإيمان بما أنزل إليه شرطاً في حصول التقوى، وركناً للهداية والفلاح، وقدّمه على الإيمان بما قبله من الكتب إشعاراً بأن الإيمان به أصل للإيمان بها، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يعنونهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾"البقرة: 13" دافع الله عن صحابة نبيه عليه الصلاة والسلام بهذه الجملة المؤكدة بعدة تأكيدات، ولم يفعل ذلك مع أصحاب نبي قبله، انظر إلى قوم نوح عليه السلام لما قالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾"الشعراء: 111"، يحتقرون أصحابه المؤمنين، أجابهم نوح: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾"الشعراء: 112-113" تدرك من هذا أن الله تعالى ما دافع عن أصحاب نبيه إلا لكرامته عليه، وقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾"البقرة: 99"، نزلت هذه الآية رداً لقول عبد الله بن صوريا أحد أحبار اليهود للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ما جئتنا بشيء"، ونذكر لهذه المناسبة أن الله تعالى تولى الدفاع عن نبيه فيما وُجِّه إليه من تهم، فما من تهمة أو نقيصة رماه بها المشركون أو اليهود أو النصارى إلا ردها الله عليهم أبلغ رد بالتأكيد تارة وبالقسم أخرى وبغير ذلك مما يقتضيه فن البلاغة كما نبينه في مواضعه إن شاء الله تعالى، وفي هذه الآية عدة مؤكدات: اللام الموطئة للقسم، والتقدير: "والله لقد أنزلنا"، وقد التي تفيد التحقيق، ووصف آيات

ببينات إشارة إلى أنه لا يصح إنكارها لوضوحها، وجملة ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾"البقرة: 99" التي تفيد حصر الكفر بها في اليهود مع وصفهم بالفسق، وهذا مما خص الله به رسوله عليه الصلاة والسلام وفضله به على سائر رسله الذين تركت لهم مهمة الدفاع عن أنفسهم فيما اتهموا به فقال نوح يدافع عن نفسه: ﴿يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾"الأعراف: 61" وقال هود: ﴿يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾"الأعراف: 67" وقال موسى- يرد على فرعون اتهامه بالسحر-: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾"الإسراء: 102" وهكذا بقية الأنبياء عليهم السلام، فاحفظ هذه القاعدة التي يتبين بها علو رتبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قلت في الاستغاثة مشيراً إليها:

نبي تولى الله عنه دفاعه ... وخيب قوماً قد رموه بجنة

وقال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾"البقرة: 104"، هذه الآية -كسابقتها- دافع الله بها عن نبيه، ذلك أن الصحابة أو الأنصار منهم كانوا في مخاطبتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقولون له: راعنا، أي اصغ إلينا، وارعنا سمعك، فقالها اليهود وأرادوا بها شتمه بالرعونة، وهي الحمق، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة وأمرهم باستعمال كلمة انظرنا التي لا تحتمل تورية ولا غشاً، والقصد بهذا حماية مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى لا يمس بسوء ولو بطريق التورية والإيهام، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مشركو مكة ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أنك رسوله ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ على رسالتك، قال تعالى يسلي رسوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم

السابقة لأنبيائهم ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ من التعنت وطلب الآيات ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الكفر والعناد ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾"البقرة: 118" ثم قال تعالى مؤكداً إثبات رسالة نبيه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾"البقرة: 119"، لِمَ لَمْ يؤمنوا؟ فإنما عليك البلاغ، وقد بلغتهم ما كلفناك به وعلينا حسابهم، وفي قراءة بجزم فعل تسأل المبنى للمعلوم، بلا الناهية ومعناها: لا تسأل عن أصحاب الجحيم ما لهم عندنا من العذاب؟ فإن عذابهم عندنا شديد لا يوصف، أو: لا تسأل عن أصحاب الجحيم مستشفعاً لهم؛ لأن العذاب حق عليهم بكفرهم، وجاء في حديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ليت شعري ما فعل أبواي؟)"تفسير الطبري" فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ نهاه عن السؤال عنهما؛ لأنهما من أهل النار وهذا الحديث مرسل ضعيف، وسياق الآية يؤكد ضعفه وسقوطه، والأبوان الشريفان من أهل الفترة وهم ناجون كما بينته في (خواطر دينية).

وقال تعالى -يحكي دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يبنيان البيت الحرام-: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾"البقرة: 129" فأجاب الله دعاءهما بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي الحديث الصحيح عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه)"رواه أحمد" الحديث، وهو الخامس من الأحاديث المنتقاة، وهذه الآية الكريمة تفيد علم إبراهيم وإسماعيل بنبينا وبصفاته؛ لأن الله تعالى أخبرهما به، وأخذ

عليهما الميثاق كما أخذه على بقية الأنبياء، وكان دعاؤهما بشارة به سجلاها في صورة توجه إلى الله وتضرع إليه بتحقيق وعده، ولا يخفى ما في هذا من التنويه بعلو مقامه عليه الصلاة والسلام.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ خياراً عدولاً ﴿لِتَكُونُوا﴾ يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، الأمم السابقة أن رسلهم بلغتهم الدعوة ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾"البقرة: 143" أنه بلغكم، خص الله الأمة المحمدية بهذه الفضيلة إكراماً لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، قال كعب: أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطِهن إلا نبياً مرسلاً: كان يقول لكل نبي: أنت شاهدي على خلقي، وقال لهذه الأمة: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وكان يقول: ما عليك من حرج، وقال لنا: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾"المائدة: 6"، وكان يقول: ادعني أستجب لك، وقال لنا: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾"غافر: 60"،

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتطلع إلى السماء ينتظر الوحي متمنياً تحويل القبلة إلى الكعبة لأنها قبلة أبيه إبراهيم، ولأن التوجه إليها أدعى لإسلام العرب، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾"البقرة: 144" الآيات، فأعطاه ما كان يتمناه من غير أن يسأله إياه، وهذا من كمال عنايته به، وشدة رعايته له، ولم يحظ رسول قبله بمثل هذه العناية، ثم أخبر تعالى أنه نبيه معروف لأهل الكتاب بصفاته ومميزاته معرفة ليس فيها شك ولا ارتياب ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ محمداً ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ نعت محمد في كتبهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ "البقرة: 146" أن الحق ما كتموه حملهم على كتمانه الحقد والحسد.

ثم قال تعالى ممتناً على المؤمنين بإرسال نبيه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾"البقرة:151" وفي هذا تنويه كبير بقدر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾"البقرة: 252" بالصدق ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾"البقرة: 252" هذه الآية رد لقول الكفار له: لست مرسلاً، ولذا أكدت بثلاثة مؤكدات: (إن، واللام وإيرادها جملة اسمية)، وهي تدل على الثبوت والاستقرار، أي إنَّ كونك من المرسلين ثابت مستقر، وهذا غاية ما يطلب في رد قول المنكرين لرسالته عليه الصلاة والسلام، لكنه تعالى زاد على هذا فأثبت أفضليته على المرسلين فقال سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ الإشارة إلى الرسل المذكورين من أول السورة وهم: نبينا المبدوء به في مفتتحها وآدم وإبراهيم وإسماعيل وموسى وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وعيسى عليهم الصلاة والسلام ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بتخصيصه بمزية ليست لغيره ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ كموسى بنص القرآن، وآدم بظاهره وصريح الحديث، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ[1] دَرَجَاتٍ﴾ هو نبينا صلى الله عليه وآله

1- قال الزمخشري: والظاهر أنه أراد محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه هو المفضل عليهم حيث أوتي ما لم يؤته أحد، من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر، ولو لم يؤت إلا القرآن وحده، لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر، دون سائر المعجزات، وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس.

وتجويز أن يراد به إبراهيم ومحمد وغيرهما من أولي العزم من الرسل بعيد لأن أحداً منهم لم يؤت مثل ما أوتي نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، ألا ترى أن الآية خصت الكليم وعيسى بالذكر لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة، قال الزمخشري: فلما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام

وسلم، كنى عنه ب ﴿ بَعْضُهُمْ﴾ تفخيماً لشأنه، وإشارة إلى أنه المعروف عند الإبهام لا يقصد غيره ولا يشار إلى سواه، ونكر درجات إشارة إلى كثرة ما أعطي منها كإتيانه القرآن وتفضيل أمته وجعل الأرض لهم مسجداً وطهوراً ويسرِ أحكام دينه وخلوها من الحرج وإرساله رحمة للعالمين إلى غير ذلك مما لم يعط لنبي ولا رسول، وعبر ب ﴿رَفَعَ﴾ إشارة إلى رفعة رتبته على بقية الرسل، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾"البقرة: 278-279"، يؤخذ من هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيٌّ في قبره الشريف يحارب المرابين بالدعاء عليهم أو بما يناسب حياته البرزخية، وهذا إلى محاربته لهم في حياته الدنيوية، وكما أن الله تعالى يحاربهم بمحق مكاسبهم وإذهاب بركتها، فإن رسوله يحاربهم بالدعاء عليهم بذلك، وأشرت إلى هذا الاستنباط في الاستغاثة بقولي:

وفي آيــة الربــا دليــل حياتــه ... دوامــاً بــلا ثنيــا إلى يــوم نفخــة

وقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾"البقرة: 285" الآيتين إلى آخر السورة، ادخرها الله لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم، فأنزلهما من كنز تحت العرش، وصح عنه عليه الصلاة والسلام: (الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه)"رواه مسلم"، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة "في نزول ﴿آمَنَ الرَّسُولُ... رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾"البقرة: 286" قال: نعم"، وفيه عن ابن عباس:"

الآيات خصا بالذكر في باب التفضيل، وهذا دليل بين أن من زيد تفضيلاً بالآيات منهم فقد فضل على غيره، ولما كان نبينا صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي أوتي منها ما لم يؤت أحد في كثرتها وعظمها كان هو المشهود له في هذه الآية بإحراز قصبات الفضل من غير مدافع.

قال الله: قد فعلت"، قلت: معنى الحديث بروايتيه أنه لما نزلت ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ﴾ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقرأها، قال الله له عند قراءة كل دعاء فيها: نعم قد فعلت، وهذا دليل على أن الله رفع عن هذه الأمة الحرج والخطأ والنسيان إكراماً لنبيها صلى الله عليه وآله وسلم، وسيأتي قوله تعالى في صفة نبيه: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾"الأعراف: 157" وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الله قد تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)"رواه ابن ماجه" وهو حديث صحيح بينت طرقه في تخريج أحاديث منهاج البيضاوي، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾"الأحزاب: 5"، وقال سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾"البقرة: 225" وكانت الأمم السابقة تؤاخذ بهذه الأشياء تشديداً عليهم لشططها في طلب الآيات كما قص الله تعالى عن بني إسرائيل، وأخبر بأن التشديد عليها كان جزاء ذلك الشطط منها، ولم يحصل شيء من ذلك لهذه الأمة والحمد الله.

2- سورة آل عمران

قدم وفد نصارى نجران على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مالك تشتم صاحبنا؟ قال: (وما أقول) قالوا: تقول إنه عبد الله قال: (أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول)، فغضبوا وقالوا هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾"آل عمران:59-60"، ثم أمره أن يباهلهم ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾"آل عمران: 61" بأن نقول: لعن الله الكاذب منا في شأن عيسى، فطلبهم عليه الصلاة والسلام للمباهلة وخرج ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين وقال: (إذا دعوت فأمنوا)"تفسير البغوي" فعلم الوفد أنه نبي، وخافوا من مباهلته وصالحوه على دفع الجزية ورجعوا.

هذا نوع من دفاع الله عن نبيه وهو تلقينه ما يقول لخصومه ومناظريه مع أنه أفصح الخلق وأعلمهم بطرق الحجاج وأقواهم على إفهام الخصم، ولكن الله تعالى يحب أن يظهر عنايته بمختلف الأساليب مما يأتي في مواضعه.

زعم اليهود والنصارى أنهم على دين إبراهيم عليه السلام، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في زمانه ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ عليه السلام ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾"آل عمران:67 -68" من أمته، ويلاحظ أن الله تعالى ذكر إبراهيم باسمه المجرد، ولم يذكر نبينا كذلك بل ذكره بوصف النبوة وفي هذا فضيلة عظيمة له صلى الله عليه وآله وسلم نوه عنها العلماء كما قال الحافظ السخاوي في (القول البديع)، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾"آل عمران: 81" من الكتاب والحكمة، هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾"آل عمران: 81" هذا تكريم كبير من الله لنبيه بأخذ الميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا به

وينصروه إن ظهر في زمانهم، قال التقي السبكي: ويؤخذ منه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نبي الأنبياء، وقال البوصيري:

فإنه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس في الظلم

قلت: ذهب جمع من المفسرين إلى أن معنى الآية: أن الله أخذ الميثاق على كل نبي في النبي الذي يأتي بعده، فأخذ العهد على آدم إن جاء رسولٌ مصدق لما معه آمن به ونصره، وأخذ العهد على إدريس ونوح وهود وصالح وهكذا إلى عيسى عليهم السلام، وهذا التفسير -وإن قال به سعيد بن جبير وطاووس- غلط لا يصح اعتماده والتفسير الذي ذكرناه أولاً هو الذي لا يجوز غيره وبيان ذلك من وجوه:

الأول: أنه لم يرد في آية ولا في حديث صحيح أن الله تعالى أخذ العهد في شأن نبي غير نبينا صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: أن القرآن لم يصف نبياً بأنه مصدق لما بين يديه أو مصدق لما مع الأنبياء قبله غير نبينا عليه الصلاة والسلام، ولم يوصف كتاب بأنه مصدق لما بين يديه غير القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾"البقرة: 89"، ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ﴾"البقرة: 97" الآية، ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾"البقرة: 101"، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾"المائدة: 48" ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾"الأنعام: 92" وانظر كيف قال الله تعالى في عيسى عليه السلام ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾"المائدة:46"، فعيسى

الذي جاء متمماً لشريعة موسى عليهما السلام لم يكن إلا مصدقاً لما بين يديه من التوراة، والإنجيل الذي جاء به كان مصدقاً لما بين يديه من التوراة فقط، ولكن التوراة التي جاء عيسى متمماً ومصدقاً لها لم تكن مصدقة لما أنزل على إبراهيم أو لوط أو شعيب عليهم السلام لتباين الشرائع المنزلة؛ ولأن تصديق الكتب كلها والهيمنة عليها من خصائص القرآن العظيم.

الثالث: أن بعثة نبينا عليه الصلاة والسلام عامة وشريعته دائمة، فناسب أن يؤخذ العهد على الأنبياء -إن ظهر في زمانهم- أن يؤمنوا به وينصروه لعموم دعوته التي تشملهم بخلاف الأنبياء، فقد كان كل واحد منهم يبعث لقومه خاصة، وربما اجتمع في الوقت الواحد نبيان وثلاثة وأكثر، كل نبي في قرية، كإبراهيم ولوط، ويعقوب ويوسف، وموسى والخضر عليهم السلام، ولم يثبت أن نبياً اتبع غيره، وترك قومه أو أمرهم باتباع ذلك النبي، ولولا أن موسى ذهب يطلب الخضر ليتعلم منه بواطن الأمور التي أوحىَ بها إليه ما قدر لهما أن يجتمعا، فلا يعقل أن يؤخذ عهد على نبي، في نبي آخر لا يلزمه إتباعه، ولا الاجتماع به! ولا يرد على هذا قول الله تعالى في شأن زكريا: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾"آل عمران: 39" لأن الملائكة لم يبشروه بيحيى مصدقاً بعيسى باسمه وشخصه كما بشرت التوراة والإنجيل بنبينا باسمه ونعته، ولكن مصدقاً بكلمة من الله أي بعيسى من حيث كانت ولادته آية كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾"المؤمنون: 50"، والحكمة في ذلك الرد على النصارى لأنه إذا كان يحيى -وهو يُوحَنّا المَعْمَدان عندهم-

يؤمن بأن عيسى كلمة من الله أي أوجده بكلمة كن، كان ادعاؤهم فيه أنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة باطلاً لا ينبني على أساس.

الرابع: أن الله تعالى أخبر عن كبار الأنبياء أنهم بشروا بنبينا صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تقدم دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾"البقرة: 129" وسيأتي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾"الأعراف: 157"، ولم يأت هذا في شأن نبي غيره، ومن ثم آمن به تُبَّع الأكبر وحبيب بن إسرائيل النجار وورقة بن نَوفل وغيرهم قبل ظهوره، ولم يؤمن بنبيٍ أحدٌ إلا بعد ظهوره كما قال الزمخشري.

الخامس: أن الله تعالى أمدَّ نبيه بالملائكة يقاتلون معه وينصرونه كما سيأتي، وحيث وجب نصره على الملائكة الذين لم يتعبدهم الله بشريعة نبي قبله لا في قتال ولا في غيره، فمن المعقول جداً أن يجب نصره على إخوانه الأنبياء.

السادس: أن الله تعالى وصف صحابته في التوراة والإنجيل كما سيأتي في سورة الفتح، فبهذه الوجوه -وهي مأخوذة من القرآن- تكون آية الميثاق نصاً في نبينا صلى الله عليه وآله وسلم لا تحتمل غيره وقد قلت في الاستغاثة:

وفي آيــة الميثــاق عهــدٌ مؤكَّــد   مــن الله للرُّسْــل الكــرام بجملــة

وقال تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾"آل عمران: 110" فُضِّلَتْ الأمة المحمدية على غيرها من الأمم إكراماً لنبيها صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن شرف التابع إنما هو لشرف المتبوع.

لما التقى المسلمون والمشركون ببدر ورأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قلة المسلمين وكثرة عدوهم استقبل القبلة ومد يديه هاتفاً بربه (اللَّهُمَّ أنجز لي ما

وعدتني، اللّٰهُمَّ آت ما وعدتني، اللّٰهُمَّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض)"رواه مسلم"، فأنزل الله تعالى هذه الآيات من هذه السورة وآيات من سورة الأنفال، وذكرناها هنا لأن موضوعها واحد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾"آل عمران: 123" وكان النصر إجابة لدعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾"الأنفال: 9" والمستغيث هو النبي عليه الصلاة والسلام كما سبق، وعبر عنه بصيغة الجمع تعظيماً ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ "الأنفال:9" بفتح الدال وكسرها، ثم تكرم الله تعالى فأمدهم بثلاثة آلاف ثم بخمسة آلاف قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ، بَلَى ﴾ يكفيكم ذلك، ثم استأنف ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةُ مُسَوِّمِينَ﴾ "آل عمران:124-125" بفتح الواو وكسرها، نزل الملائكة وقاتلوا مع الصحابة جنباً إلى جنب كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾"الأنفال: 12" فكان الصحابي يقصد ضرب المشرك فتطير رقبته قبل أن يصل سيفه إليها، سبقه الملك فضربها ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾"الأنفال:13" يؤخذ من هذه الآيات أمور:

أحدها: أن الله تعالى أمد نبيه بالملائكة على ثلاث دفعات: ألف ثم ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف.

ثانيها: أن الملائكة نزلوا على صورة رجال يركبون خيلاً وهم معلَّمون بعمائم وغيرها من نوع ما كان الصحابة معلمين به، وثبت في كتب الصحاح من السنة والسيرة أنهم قاتلوا المشركين فقتلوا بعضهم وأسروا بعضاً آخر وخلصوا بعض الصحابة من القتل أو الأسر وساعدوا بعضهم على أسر بعض المشركين.

ثالثهما: أن الله تعالى أمد نبيه أيضاً بإلقاء الرعب في قلوب الكفار وثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون)"رواه مسلم" فهذه الخصال لم تعط لنبي قبل نبينا صلى الله عليه وآله وسلم.

تنبيهات:

الأول: ثبت في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن يساره يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد- يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام-، قال النووي: في هذا الحديث بيان كرامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الله تعالى وإكرامه إياه بإنزال الملائكة تقاتل معه، وبيان أن الملائكة تقاتل وأن قتالهم لم يختص بيوم بدر، وهذا هو الصواب خلافاً لمن زعم اختصاصه، فهذا صريح في الرد عليه ا.هـ.

الثاني: زعم بعض المتحذلقين من المعاصرين أن الإمداد بالملائكة في الآيات المذكورة كناية عن الإمداد بقوة روحية وهذا جهل فاضح وإلحاد في كتاب الله، وكيف غفل عن الأعداد؟ ألف، ثلاثة آلاف، خمسة آلاف؟! أم كيف نسى نزولهم

مردفين ومسومين؟! وهل القوة الروحية تقدر بكم أو كيف؟! ولو صح هذا التأويل الفاسد لاقتضى أن الله تعالى لم يمد نبيه بقوة روحية في سائر غزواته كغزوة خيبر وفتح مكة، وهذا باطل، فإن الله تعالى لم يتخلَّ عن نبيه لحظة بل أمده بالقوة الروحية في غزواته وسائر شئونه، وبهذا الإمداد الروحي قال لصحابه في أحرج المواقف وأشدها خطورة: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾"التوبة: 40"، وقال لعمه -حين عرض عليه أن يوافق قومه على ترك الدعوة في مقابلة ما قدموه من مال وغيره-: (يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته)"السيرة النبوية لابن هشام"، ولكن الله أمده في بدر وأُحد بالملائكة إمداداً حِسياً صرح به الكتاب والسنة وأخبر به الصحابة الذين شاهدوه ولمسوه، بل اعترف به المشركون أنفسهم فقد صرح كثيرٌ منهم بأنهم رأوا رجالاً غير الصحابة يوقعون القتل والأسر فيهم، صرحوا بهذا في وقعة بدر وبعدها حين كانوا يتحدثون عنها، يضاف إليه إمداد معنوي صرحت به الآية أيضاً وهو إلقاء الرعب في قلوب الكفار، وهذا مما فُضِّل به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم على سائر الأنبياء الذين شاركوه في الإمداد الروحي، بل أمد الله به المؤمنين جميعاً كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾"المجادلة: 22".

الثالث: أشار القرآن إلى أن الإمداد بالملائكة لم يقع لأحد غير نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، قال الله تعالى في قصة حبيب النجار: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾"يّـس: 28" الآية، قال الزمخشري: المعنى أن الله كفى أمرهم بصيحة مَلَكٍ ولم يُنزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء كما فعل يوم بدر والخندق، فإن قلت: وما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ؟، قلت

معناه: وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كلِّ قوم على بعض الوجوه دون البعض، وما ذلك إلا بناءً على ما اقتضته الحكمة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَنْ أَغْرَقْنَا﴾"العنكبوت: 40"، فإن قلت: فلِمَ أنزل الجند من السماء يوم بدر والخندق؟ قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾"الأحزاب: 9" ﴿ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾"الأنفال: 9" ﴿بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾"آل عمران: 124" ﴿بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةُ مُسَوِّمِينَ﴾"آل عمران: 125"، قلت: إنما كان يكفي مَلَك واحد، فقد أهُلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه، ولكن الله فضل محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلاً عن حبيب النجار، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً، فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء وكأنه أشار بقوله ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾"يّس:28" إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهَّل لها إلا مثلك، وما كنا نفعله بغيرك ا.هـ.

قال المشركون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما نعبد الأصنام إلا حباً لله ليقربونا إليه، وقال نصارى نجران: ما عبدنا عيسى وأمه إلا محبة لله، فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾"آل عمران: 31" جعل الله اتباع نبيه سبباً في نيل حبه ومغفرته، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هَوَاه تَبعاً لما جئت به)"رواه الخطيب البغدادي"

فمن ادعى الإيمان أو محبة الله ولم يتبع رسوله فهو كاذب في دعواه، ومن أظهر الكذب وأبينه دعوى إمكان الوصول إلى الله بطريق فلسفة أو رياضة أو أي طريق غير الطريق الذي بينته هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾"آل عمران: 32" يفيد أن طاعة الله ورسوله واحدة؛ لأن رسول الله لا يأمر إلا بما يرضى الله، ونذكر هنا مسألة استخرجناها من تتبع أسلوب القرآن الكريم وهي: أن الله تعالى يقرن كثيراً ذكر رسوله بذكره مثل الآية المذكورة ومثل ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾"البقرة: 279"، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾"النساء: 59"، ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾"النساء: 100"، ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾"المائدة: 33"، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾"النساء: 61"، ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾"الأنفال: 1"، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾"الأنفال: 13"، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾"الأنفال: 27"، ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾"التوبة: 1"، ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾"التوبة: 3"، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾"التوبة: 24"، ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ﴾"التوبة: 29"، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾"التوبة: 54"، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾"التوبة: 59"، ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾"التوبة: 74"، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾"التوبة: 62"، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾"التوبة: 63"، ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾"التوبة: 65"، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾"التوبة: 71"، ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾"التوبة: 90"، ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾"التوبة: 94"، ﴿وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾"التوبة: 107"، ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾"النور: 50"، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾"النور: 51"، ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾"النور: 52"، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾"النور: 62"، ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾"الجن: 23" إلى غير هذا من الآيات التي جاء فيها ذكر الرسول مقترناً بذكر الله تعالى، وهو تشريف لم ينله أحد غير نبينا صلى الله عليه وآله وسلم.

لما خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى غزوة أحد جعل ظهره وعسكره إلى الجبل، ورتب الجيش وأجلس فرقة من الرماة بسفح الجبل، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم: (انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا، ولا تبرحوا غلبنا أو نصرنا)"تفسير الجلالين"، وكانت الغلبة أول الأمر للمسلمين وولى المشركون الأدبار فراراً من القتل، وترك بعض الرماة مكانهم بسفح الجبل وجروا خلفهم طمعاً في الغنيمة – مخالفين أمر الرسول، فعمل الكفار حركة التفاف من ظهر الجبل وباغتوا المسلمين، فانقلبت الكرَّة عليهم وانهزموا وفروا والنبي يناديهم ، (إليَّ عباد الله إليَّ عباد الله)"تفسير البيضاوي"، وتعجبوا كيف ينهزمون وهم مسلمون؟!!، فأنزل الله يعاتبهم ويبين لهم أن سبب هزيمتهم اختلافهم المعبَّر عنه بالفشل، وعصيانهم أمر الرسول ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾ تقتلونهم ﴿بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأمرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾"آل عمران: 152" الآيات، إلى قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ عظيمة ﴿ مِنَ اللَّهِ﴾ وضعها في قلبك الكبير ﴿لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ وذهبوا إلى الكفار ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عما أتوه من مخالفة أمرك ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لأغفِرَ لهم باستغفارك ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾"آل عمران: 159" ليقتدي بك المسلمون فيجعلوا الشورى أساس حكمهم ويبنوا عليها نظام مجتمعهم، وهذه الآية تفيد ثلاثة أشياء:

أحدها: وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرحمة العظيمة؛ لأن تنكير ﴿رَحْمَةٍ﴾ يفيد تعظيمها، فهو أرحم الرحماء بعد الله تعالى، ومن أسمائه نبيُّ الرحمة كما ثبت في الحديث.

ثانيها: نفي الفظاظة وغلظ القلب عنه؛ لأنهما صفتان لا يليقان إلا بالمتكبر القاسي، وهو عليه الصلاة والسلام متواضع يفيض قلبه عطفاً ومودة.

ثالثها: أن الله تعالى – وهو صاحب العفو والمغفرة- يطلب من نبيه أن يعفو عن أصحابه الذين خالفوا أمره ليغفر هو لهم سبحانه وتعالى، وهذا تكريم لم ينله نبي ولا رسول قبله.

فُقِدت قطيفةٌ حمراءُ من غنائم بدر، فقال بعض المنافقين: لعل النبي أخذها، فأنزل الله تعالى يبرِّئ نبيه من هذه التهمة ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾"آل عمران: 161" أي ما ينبغي لنبي أن يخون في الغنيمة لعصمته، فلا تظنوا به ذلك، وعلى قراءة ﴿ يُغَلَّ﴾ بالبناء للمجهول يكون المعنى: ما ينبغي لنبي أن ينسب إلى الغلول، والجملة خبر مراد بها النهيُ، والآية – على كلتا القراءتين- تفيد دفاع الله عن نبيه، ثم ارتقى من تنزيهه، إلى الامتنان به على المؤمنين فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾"آل عمران: 164" فجعل بعثة نبيه منة على عباده لما ترتب عليها من نعمة الإيمان وتطهيرهم من الآثام وتعليمهم الكتاب والحكمة، وهذه - لعمر الله- أفضل النعم، وأجلها على الإطلاق، وقال اليهود للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله عهد إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان يقدمه لله، فإن كان صادقاً جاءت نار بيضاء من جهة السماء فأكلته، فإن كنت رسولاً، فقدم قرباناً يدل على صدقك، فأنزل الله تعالى يرد عليهم ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ بعد هذه

الحجة الدامغة فاصبر ولا تحزن ﴿ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾"آل عمران: 183-184" وصبروا فهم أسوتك، وفي هذا دفاع من الله عن نبيه وتسليته عما لحقه من تكذيب اليهود له.

3- سورة النساء

نزل في اليهود الذين حرفوا نعت النبي في كتبهم، وكانوا إذا خاطبوه استعملوا ألفاظاً قصدوا بها سبه وإيذاءه قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ قوم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ الذي أنزل الله في التوراة من نعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ التي وُضِع عليها ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أمرهم بشيء ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك ﴿وَ﴾ يقولون أيضاً إذا خاطبوه ﴿اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ دعاء عليه، أي اسمع لا سمعت ﴿وَ﴾ يقولون له ﴿رَاعِنَا﴾ وهي كلمة سب في قصدهم، وسبق النهي عن خطابه بها في سورة البقرة ﴿لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ﴾ بالطعن في النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بدل وعصينا ﴿وَاسْمَعْ﴾ فقط ولم يزيدوا غير مسمع ﴿وَانْظُرْنَا﴾ أي أنظر إلينا بدل وراعنا ﴿لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾"النساء: 46" فضح الله اليهود في تحريفهم نعت نبيه وفي سبهم إياه، وجعل الطعن فيه طعناً في دين الإسلام والطاعن في الدين كافر، فالطاعن في النبي صلى الله عليه وآله وسلم كافر وعليه إجماع العلماء، زاد المالكية: ويجب قتله[1] ولو تاب، وتوبته تنفعه يوم القيامة،

1- صح في سنن أبي داود والنسائي عن أبن عباس، قال: إن أعمى كانت له أم ولد تكثر الوقيعة في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتشتمه، فقتلها الأعمى فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال (أشهد أن دمها هدر)"رواه الحاكم" وفي سنن أبي داود عن الشعبي عن علي عليه السلام قال: إن

ومدركهم أن قتل الطاعن حقٌ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلا تسقطه التوبة كما لا تُسْقِط حد القذف عن القاذف، ولهذا كان القاضي الشافعي في مصر إذا رُفع إليه شخص طعن في النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يحوله على القاضي المالكي حكاه الحافظ ابن حجر.. ثم ذكر الله تعالى في معرض عد قبائح اليهود لعنهم الله ﴿أَمْ﴾ بل أ ﴿يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فهو من العام المراد به الخصوص وأطلق عليه لفظ الناس، إشارة إلى أنه جمع الكمالات الإنسانية، فهو أمة في فرد.

كأنــه وهــو فــرد في جلالتــه　　في عســكر حــين تلقــاه وفي حشــم

﴿عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من النبوة وكثرة الزوجات ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ جده، كموسى وداود وسليمان ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ النبوة ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾"النساء: 54" كان داود وسليمان ملكين عظيمين، وفي كتب اليهود أن داود كان له تسع وستعون امرأة كملهن مائة بزوجة أوريا التي تزوجها بعد قتل زوجها في حرب أرسله إليها ثلاث مرات.

وأن سليمان كان له ألف امرأة ما بين زوج وسرية، فَلِم يقولون عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لو كان نبياً لاشتغل عن النساء، مستكثرين عليه تسع زوجات لم يقصد بزواجهن المتعة، وإنما قصد مصالح تعود على الدعوة بأعظم الفائدة كما

يهودية كانت تشتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتقع فيه فخنقها رجل حتى ماتت فأطل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دمها، وحكى ابن المنذر الإجماع على قتل من سب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا إن تاب، فتوقف فيه الشافعية، وأوجبه المالكية، لما ذكر في الأصل، وانظر الحديث الثامن والثلاثين من كتاب (الأحاديث المنتقاة في فضائل سيدنا رسول الله).

يظهر من ظروف كل واحدة منهن؛ فقد تزوج عائشة رضي الله عنها مكافأة لوالدها الذي لازمه منذ بدء الدعوة الإسلامية، وهاجر معه، وكان صاحبه في الغار، ولهذا المعنى تزوج حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، مع قصد جبر خاطره أيضاً، لأنه كان عرض زواجها على عثمان فأبى وقال له -كما في الحديث- (يتزوج حفصة من هو خير من عثمان)"رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء"، وتزوج بنت عمته زينب بنت جحش، بأمر القرآن، ليبطل حكم التبني عملياً ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾"الأحزاب: 37"، وتزوج أم سلمة وزينب بنت خزيمة رضي الله عنهما لأن زوجيهما استشهدا في أحد، ولم يكن لهما عائل يكفلهما بعد زوجيهما، وتزوج أم حبيبة رضي الله عنها لأنها هاجرت مع زوجها إلى الحبشة وتنصَّر زوجها، وبقيت غريبة وحيدة ولو عادت إلى مكة لعذبها أهلها، وفتنوها عن دينها، مع ملاحظة أنها بنت أبي سفيان أحد زعماء المشركين بمكة، ففي الزواج بها مصلحة لا تخفى، وتزوج صفية رضي الله عنها لأنها تعرضت للأسر والهوان، بعد أن كانت عزيزة في أهلها، إذ كان أبوها وعمها سيدَيْ قومهما وخيَّرها بين أن تعود إلى أهلها، أو تقعد معه، فاختارته وهي إسرائيلية، وأبوها حُيَيُّ بن أخطب سيد بني قريظة، وتزوج سودة بنت زَمْعَة رضي الله عنها، لأن زوجها -وكان ابن عمها- مات عنها بعد عودتها من الحبشة، وليس لها عائل، وإذا عادت إلى أهلها فتنوها عن دينها، وتزوج جُويرية بنت الحارث رضي الله عنها بعد أن سُبيت في غزوة بني المصطلق، فأكرمها عن الإهانة وأعتقها وكان أبوها سيدَ قومه، وحض النبي صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين على

إعتاق سباياهم في تلك الغزوة، فأعتقوهم، فأسلموا جميعاً، وحَسُن إسلامهم، فكان زواجها بركة عليها وعلى قومها.

ويلاحظ أن زوجاته كلهن كبيرات ثَيِّبات إلا عائشة، فهي الوحيدة التي كانت صغيرة عذراء، وكان في إمكانه عليه السلام- وقد فتح الله له مكة، ودانت له الجزيرة العربية- أن يتزوج أجمل بنات العرب، ويتخذ ما شاء من الجواري، لكنه لم يفعل. وظل- إلى جانب هذا- وَفِيّاً لزوجه الأولى خديجة رضي الله عنها، يثني عليها كلما ذكرها، ويواصل صديقاتها وأقاربها وجيرانها ببره وعطفه، حتى غارت منها عائشة ولم ترها كما قالت عن نفسها، وقالت له مرة: ما تذكر من عجوز حمراء الشِّدقين، قد أبدلك الله خيراً منها، فرد عليها بغضب (ما أبدلني الله بها خيرا منها)"رواه الطبراني في المعجم الكبير" الحديث، فليست المسألة حكاية متعة جنسية، ولكنها معاني إنسانية. ومن الحكمة في تعدد زوجاته عليه السلام أن يَنْقُلْنَ عنه الأحكام الخاصة بالنساء في الجماع والحيض والنفاس، وما إلى ذلك، فليس للمبشرين وأمثالهم من الحاقدين على الإسلام، ونبي الإسلام، أي حجة في هذه المسألة التي هَوَّلُوا بها، وظنوا أنهم أتوا بحجة لا يستطيع المسلمون دفعها، والواقع أنها حجة داحضة، يُدْرك سقوطها بأدنى تأمل، والله الموفق.

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

هم الولاة كالخليفة والقاضي، أعيد الأمر بطاعة الرسول تنبيهاً على وجوب طاعته فيما يصدر عنه من أوامر ونواهي زائدة على ما في القرآن، ولم يعد الأمر بطاعة أولي الأمر إشارة إلى أن طاعتهم بالتبعية لطاعة الله ورسوله، لا استقلالية، ولهذا عَقَّب بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أمركم به الولاة أو نهوكم عنه مثلاً ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى

اللَّهِ﴾ أي إلى كتابه ﴿وَالرَّسُولِ﴾ أي سنته ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فطاعة أولي الأمر واجبة ما كانت داخلة في دائرة الكتاب والسنة، فإن خرجت عنهما فلا تجب ﴿ذَلِكَ﴾ الرد إلى الله والرسول ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾"النساء: 59" مآلاً وعاقبة، وليس خير وأحسن على بابهما، بدليل ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بل المراد بهما إثبات الخير وحسن العاقبة، فيكون مقابلها وهو عدم الرد شراً وسيئ العاقبة.

وهذه الآية تشمل متعصبي المقلِّدين الذين يتركون مقتضى الدليل، لقول أئمتهم.

(إن قيل) ما الحكمة في أن الله تعالى قال في الآية السابقة في آل عمران ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾"آل عمران: 32" ولم يقل: وأطيعوا الرسول؟ قلت: خاطب الله بهذه الآية المشركين من أهل الكتاب وغيرهم الذين قالوا: ما نعبد المسيح أو عزيراً أو الأصنام إلا حباً لله وتقرباً إليه، فقال الله لنبيه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فيما يأمركم به من التوحيد ولا شك أنه مصرح به في القرآن، مقرر بدلائله المتنوعة، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم حين يأمر به، لم يأمر إلا بما أثبته القرآن العظيم، وفضل دلائله ولذا عقب بقوله تعالى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾"آل عمران: 32" أما الخطاب هنا، فهو موجه إلى المؤمنين فيما يختص بالأحكام والعبادات والمعاملات التي يقتضيها مجتمعهم، زيادة على التوحيد الذي أقروا به، واطمأنت إليه قلوبهم، والسنة أتت فيها بأشياء ليست في القرآن فأوجب الله اتباعها.

وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي المنافقين الذين نزلت فيهم الآية، وإن كان اللفظ عاماً يشمل غيرهم أيضاً، حسب القاعدة المقررة ﴿إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ فيه التفات عن الخطاب، تعظيماً له، وتفخيماً لشأنه،

وتنويهاً بمقامه ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾"النساء: 64"، فاستغفار الرسول لهم سبب في توبة الله عليهم، ورحمته بهم، ويؤخذ منه أن طلبه مقبول عند الله تعالى، وشفاعته لا ترد.

قال البيضاوي: وإنما عدل عن الخطاب، ولم يقل واستغفرت لهم، لأن القياس يقتضي هذا، لقوله ﴿جَاءُوكَ﴾ تفخيماً لشأنه، وتنبيهاً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه، ويشفع له، ومن منصبه أن يشفع في كبائر الذنوب، قلت: ولهذا صح عن أنس وغيره من طرق عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)"رواه أبو داود والترمذي".

وقال سبحانه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي المنافقون وغيرهم ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾"النساء: 65" ينقادوا انقياداً مطلقاً لا معارضة فيه، ويؤخذ منه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يخطئ، وإلا لما وجب التسليم لحكمه تسليماً مطلقاً، فالآية ترد قول الذين شذوا بتجويز الخطأ عليه، وأشار التاج السبكي في جمع الجوامع، إلى رد هذا القول الشاذ، بقوله: والصواب أن اجتهاده عليه السلام لا يخطئ، هذا وللعارف الكبير التاج أبي العباس أحمد ابن عطاء الله السكندري في كتاب التنوير، كلام على هذه الآية أحببنا أن ننقله لفائدته قال: ثم إنه سبحانه لم يكتف بنفي الإيمان عمن لم يحكم، أو حكم ووجد الحرج في نفسه حتى أقسم على ذلك بالربوبية الخاصة برسوله صلى الله عليه وآله وسلم رأفة وعناية وتخصيصاً ورعاية لأنه لم يقل: فلا والرب، وإنما قال: ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية، ففي ذلك تأكيد في القسم، وفي المقسم عليه. إظهاراً لعنايته برسوله صلى الله عليه وآله وسلم إذ جعل حكمه حكمه، وقضاءه قضاءه،

فأوجب على العباد الاستسلام لحكمه، والانقياد لأمره ولم يقبل منهم الإيمان بألوهيته، حتى يذعنوا لأحكام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي الآية دلالة أخرى لعظم قدره وتفخيم أمره صلى الله عليه وآله وسلم، وهي قوله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ فأضاف نفسه إليه، كما قال في الآية الأخرى ﴿كهيعص، ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾"مريم: 1-2"، فأضاف الحق سبحانه وتعالى اسمه إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأضاف زكريا إليه، ليعلم العباد الفرق ما بين المنزلتين، وتفاوت ما بين المرتبتين، ثم أنه تعالى لم يكتف بالتحكيم الظاهر، فيكونوا به مؤمنين بل اشترط فقدان الحرج، وهو الضيق في نفوسهم من أحكامه صلى الله عليه وآله وسلم، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها، وقال أيضاً: أعلم أن الأحوال ثلاثة: قبل التحكيم وفيه وبعده، فأما قبل التحكيم، فعبوديتهم التحكيم وأما في الحكم وبعده، فعبوديتهم عدم وجدان الحرج في أمورهم فإن قلت: إن ذلك لازم من قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ قيل ليس كل من حكَّم فقد الحرج عنه، إذ قد يحكِّم ظاهراً، والكراهة عنده موجودة، فلا بد أن ينضم إلى التحكيم فقدان الحرج ووجود التسليم فإن قال قائل: إذا لم يجدوا الحرج فقد سلموا تسليما فما فائدة الإتيان بقوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، بعد نفي الحرج المستلزم لقبول التسليم الذي ممن صفته وجود التأكيد؟ فالجواب: أن قوله تعالى ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي في جميع أمورهم، فإن قالت: إن ذلك لازم من قوله ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ فالجواب: أن التحكيم ما أطلقه، بل قيده بقوله تعالى ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فصارت الآية تتضمن ثلاثة أمور: (أحدها) التحكيم فيما اختلفوا فيه، (الثاني) عدم وجدان الحرج في التحكيم، (الثالث): وجود التسليم المطلق فيما شجر بينهم، وفيما نزل بينهم في أنفسهم، فهو عام بعد

خاص فافهم، ثم أخبر الله تعالى بعموم رسالة نبيه، فقال ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ وستأتي آيات كثيرة بهذا المعنى، وقوله سبحانه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾"النساء: 79"، على رسالتك، رد على اليهود والمشركين الذين أنكروا رسالته، ثم رتب على ما تقدم ترتيب النتيجة على المقدمة قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ﴾ في كل ما أمر به أو نهى عنه ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ فطاعة الرسول طاعة الله، ثم أنذر المعرضين عن طاعته، فقال ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾"النساء: 80" بل نحن نتولى عقابهم، ويلاحظ من هذه الآية وما في معناها أن الله تعالى حض -تارة- على طاعة رسوله، ورغب فيها، وجعلها طاعته، وتارة أمر بها إلى جانب الأمر بطاعته ولم يفعل هذا مع الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام فقد قال نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وعيسى لقومهم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾"آل عمران: 50"، والسر في ذلك أن الله سبحانه وتعالى لما تولى الدفاع عنه، حسبما بيناه في سورة البقرة، تولى توجيه الأمر بطاعته، والحضّ عليها، وحيث ترك للأنبياء مهمة الدفاع عن أنفسهم، ترك لهم توجيه الأمر بطاعتهم، وبين المقامين بون شاسع.

(تنبيه) الخطاب في الآية السابقة على هذه، وهي قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾"النساء: 79" موجه إلى الإنسان من حيث هو، وقيل الخطاب موجه إلى الرسول، والمراد أفراد أمته، وهذا كقوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾"الطلاق: 1" والمراد بالحسنة النعمة، وبالسيئة النقمة.

ومعنى الآية أن النعمة تصيب الإنسان بفضل الله، والنقمة تصيبه بشؤم معاصيه، وفي الحديث الصحيح (وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)"رواه ابن ماجه"، وقال تعالى يخاطب رسوله ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾"النساء: 84"، ولا

يهمك تخلف المنافقين وغيرهم وقد عد من خصائصه عليه الصلاة والسلام –أخذاً من هذه الآية ومن حديث صحيح أنه إذا هم بحرب ولبس لأمته فلا يرجع حتى يحكم الله بينه وبين عدوه، ويقاتل ولو كان وحده، لأنه موعود بالنصر.

وسرق أنصاريٌّ اسمه طُعمة بن أُبَيرِق -وكان منافقاً- من بيت جاره قتادة، درعاً ودقيقاً فطبخ الدقيق، وخبأ الدرع عند يهودي اسمه زيد بن سعنة، ووجدت الدرع عنده، فقال: أودَعَها طُعْمة عندي فأنكر، وحلف ما سرقها، وأيده أهله، وحلفوا معه، فهمَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقطع يد اليهودي لأن الدرع وجدت عنده، وشهد طُعْمة وأهله ضدَّه، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ﴾ طعمة وأهله ﴿خَصِيمًا﴾"النساء: 105" مخاصماً عنهم، ولو أنه صلى الله عليه وآله وسلم حكم على اليهودي، لما كان عليه من حرج في ذلك لوجود الدليل والقرينة كما سبق ولكن الله لا يرضى لنبيه إلا أن يكون حكمه مطابقاً للواقع ونفس الأمر، ظاهراً وباطناً، فنبهه بهذه الآية إلى حقيقة ما وقع، ومن هنا تعلم بطلان ما زعمه بعض الشُذَّاذ من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد يخطئ، وأن الله ينبهه بعد وقوع الخطأ، حيث نجده هنا ينبهه قبل صدور الحكم، فبان بطلان ما زعموه، ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ مما هممت به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾"النساء: 106" وإذا كان الله يأمره بالاستغفار من الهم، مع أنه غير مؤاخذ به، فكيف يتركه يخطئ؟! فإن قيل: ما الحكمة في أمره بالاستغفار من الهم؟ فالجواب: أن الحكمة فيه: بيان حفظه من الخطأ، حتى في الهم الذي لا يؤاخذ به. ولهذا عد العلماء من السنة هَمُّهُ صلى الله عليه وآله وسلم بالشيء.

وقالوا: يسن صيام تاسوعاء بجانب عاشوراء لأنه صلى الله عليه وآله وسلم هم بصيامه وتوفي قبل مجيئه، وعَرَّفوا السنة بأنها أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأفعاله وتقريره وهمه بالشيء ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ من المنافقين ﴿أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء بالحق في هذه القضية، لكنهم لم يضلوك، لفضل الله عليك، وعصمته إياك ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لو فرض أنهم أضلوك بشهادة الزور، وحلفهم كذباً ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأنك حكمت بما سمعت من الشهود، مع وجود الدرع عند اليهودي، وهذا تأكيد لبراءته صلى الله عليه وآله وسلم من الخطأ في الحكم، ولو حاول المنافقون إيقاعه فيه ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ما فيه من الأحكام، أو المراد بها السنة ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ من الأحكام والغيوب والحقائق ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ بما ذكر وغيره ﴿عَظِيمًا﴾ "النساء: 113" لا يعلم قدره إلا واهبه لك، وفي هذا تنويه كبير بمقامه صلى الله عليه وآله وسلم.

(تنبيهات): (الأول) قوله تعالى ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾"النساء: 105" أخذ منه العلماء جواز الاجتهاد له صلى الله عليه وآله وسلم، وقال عمر رضي الله عنه: لا يقولن أحدكم قضيت بما أراني الله، فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ولكن ليجتهد رأيَه، لأن الرأي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان مصيباً لأن الله تعالى كان يريه إياه، وإن رأى أحدنا يكون ظناً ولا يكون علماً، وهذا الكلام صريح فيما قررناه من أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يخطئ في اجتهاده.

(الثاني) قوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾"النساء: 106" أبعد من أخذ منه وقوع الذنب منه عليه السلام، لأن الهم غير مؤاخذ به بالنص والإجماع، والاستغفار ليس خاصاً بالذنوب بل له حكم كثيرة، منها ما بيناه فيما سبق، ومنها: استدرار الرزق، لقوله تعالى ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[1] "نوح:10-11" الآية ومنها: تفريج الهموم، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم (من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب)"رواه أحمد".

قال الزمخشري: في سورة النصر: والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفاً لأمته، ولأن الاستغفار من التواضع لله، وهضم النفس، فهو عبادة في نفسه ا هـ."[2]"

1- عن الحسن البصري أن رجلاً شكى إليه الجدب فقال: استغفر الله، وشكى إليه آخر الفقر، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون أبواباً، ويسألون أنواعاً، فأمرتهم كلهم بالاستغفار؟ فتلا عليه ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾"نوح: 10-12"

2- وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ، رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾"المؤمنون: 93-94"، فإن قلت: كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب ألا يجعله معهم؟ قلت يجوز أن أيسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهاراً للعبودية وتواضعاً لربه، وإخباتاً له واستغفاره صلى الله عليه وآله وسلم إذا

(الثالث): مما استنبطته من تتبع أسلوب القرآن الكريم أن الله تعالى إذا أسند إليه تعليم شخص معين، كان ذلك دليلاً على نبوته مثل ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾"النساء:113"، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾"البقرة:31"، ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾"البقرة:251"، ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾"آل عمران:48"، ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾"المائدة:110"، ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾"يوسف:21"، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾"الأنبياء:80"، ومن هنا كان قوله تعالى –في سورة الكهف-﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾"الكهف:65"، دليلاً على نبوة الخضر عليه السلام، يضاف إلى الأدلة التي ذكرتها في (خواطر دينية).

وقال مشركو مكة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إنا سألنا اليهود عنك وعن صفتك في كتابهم، فزعموا أنهم لا يعرفونك فأنزل الله تعالى -رداً عليهم- ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾"النساء:166"، وهذا من جملة دفاع الله عن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم توعد الله اليهود الذين أنكروا نبوته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم اليهود ﴿وَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو الإسلام، بقولهم للمشركين: أنتم أهدى سبيلاً من محمد ﴿ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾"النساء:167"، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

قام من مجلسه سبعين مرة أو مائة مرة، لذلك وما أحسن قول الحسن- في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: "وليتكم ولست بخيركم"-: كان يعلم أنه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه.

وهم اليهود أيضاً ﴿وَظَلَمُوا﴾ النبي بكتم نعته الموجود في كتابهم ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾"النساء:168-169" هيناً، أوجب لهم التأبيد في النار، وهذا يدلك على مقدار حب الله لنبيه، ورعايته له.

4- سورة المائدة

نزلت في حجة الوداع –والنبي صلى الله عليه وآله وسلم واقف بعرفة يخطب- قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾"المائدة: 3"، في هذا تشريف للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، حيث صرح الله تعالى بأنه أكمل له ولأمته دينهم، ورضى لهم الإسلام ديناً، ولهذا قال بعض أحبار اليهود –لعمر رضي الله عنه- يا أمير المؤمنين نزلت عليكم آية، لو نزلت فينا معشر اليهود: لاتخذنا ذلك اليوم عيداً قال عمر: وما هي؟ فذكر هذه الآية، قال عمر: فإنها نزلت يوم الجمعة بعرفة، يعني وهو يوم عيد عند المسلمين، ومثل هذه الآية، قوله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾"آل عمران:19" فهذه الآية الكريمة تفيد بطلان كل دين غير دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا صرح في آية أخرى بأن متَّبع غيره خاسر، فقال تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾"آل عمران:85" وهذا يفيد عموم بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأن دينه ناسخ لجميع الأديان، فالذين يعتقدون إمكان دخول الكتابي الجنة، أو أن عمله الصالح ينفعه يوم القيامة، خاطئون بهذا الاعتقاد، لمخالفتهم صريح القرآن، وانحرافهم عن الدين.

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأضاف إليه تشريفاً ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ التوراة والإنجيل، كحكم الرجم وغيره ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ لا يبينه لعدم تعلق المصلحة ببيانه، كبعض الأخبار المحرفة، وقد قسم العلماء ما في كتب اليهود والنصارى إلى ثلاثة أقسام: قسم دل القرآن أو السنة على صحته، فهو مقبول، وقسم أفاد القرآن أو السنة عدم صحته، فهو مردود، وقسم لم نجد في القرآن أو السنة ما يؤيده أو يرده، فهذا لا نجزم فيه بقبول ولا رد عملاً بقوله عليه الصلاة والسلام (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم)"رواه البخاري" قالوا: غير أنه إذا كان في باب المواعظ وترقيق القلوب، فلا بأس به؛ لأن عمر رضي الله عنه كان يستمع إلى ما ينقله كعب الأحبار من الرقائق، بل كان يدعوه أحياناً إلى ذلك بقوله: "خَوِّفنا يا كعب""حلية الأولياء"، ومما لا يضر نقله عنهم تعيين بعض الأسماء المبهمة في القرآن كتعيين ملكة سبأ بأنها بلقيس، والذي عنده علم من الكتاب، بأنه آصِفُ بن برخيا.

ونحو هذا مما لا يمس العقيدة، ولا يتعلق بشيء من الأحكام ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه ينور العقل والبصائر، والنور من أسماء الله تعالى سمى به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾"المائدة:15" هو القرآن الكريم ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الكفر والجهل ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الإيمان والعلم ﴿بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾"المائدة:16" دين الإسلام، وفي هذا تشريف كبير لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال سبحانه ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والإضافة للتشريف كما سبق ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ﴾ لا ﴿تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾"المائدة: 19" فسمى نبيه بشيراً ونذيراً، وستأتي أسماء كثيرة له، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، ونباهة قدره، إذ كل اسم منها ينبئ عن ناحية من نواحي العظمة فيه.

وقال جل شأنه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾"المائدة: 41" وهم المنافقون، وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عن مسارعة المنافقين إلى إظهار الكفر الذي يبطنونه، كلما وجدوا فرصة لإظهاره وههنا فائدة ينبغي أن ننبه إليها، وهي أن الله تعالى لم يناد رسوله إلا باللقب المشعر بالتعظيم، نحو ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ..﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ..﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ.. ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ونادى غيره من الأنبياء بأسمائهم المجردة ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ..﴾ ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ..﴾ ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا..﴾ ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ..﴾ ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ..﴾ ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ..﴾ ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ومن هنا يتبين علو رتبته على جميع الأنبياء وقد أشرت إلى هذا في الاستغاثة بقولي:

أجَــلَّ إله العــرش قَــدْرَ نبيــه　　　　فعظمــه عنــد النــداء بكنيــة

وقال الزمخشري- في أول سورة الأحزاب: جعل نداءه بالنبي والرسول في قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ..﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ..﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وترك نداءه باسمه، ما قال: يا آدم يا موسى يا عيسى يا دود، كرامة له وتشريفاً، وربئاً بمحله، وتنويهاً بفضله، فإن قلت: إن لم يوقع اسمه في النداء فقد أوقعه في الإخبار

في قوله: محمد رسول الله. وما محمد إلا رسول. قلت: ذك لتعليم الناس بأنه رسول الله، وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به. فلا تفاوت بين النداء والإخبار، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الإخبار، كيف ذكره بنحو ما ذكره في النداء: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ.. ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ..﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ..﴾ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ.. ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ..﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ..﴾ ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ﴾ اهـ.

وقال سبحانه﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾"المائدة:67" فلا يصلون إلى قتلك.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُحْرَس قبل نزول الآية احتياطاً، قالت عائشة رضي الله عنها: سهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مَقْدَمه المدينة ليلة، فقال (ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة)"رواه البخاري ومسلم" قالت: فبينما نحن كذلك، سمعنا خشخشة السلاح. قال (من هذا؟) قال: سعد بن أبي وقاص. قال (ما جاء بك؟) قال: وقع في نفسي خوف على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجئت أحرسه. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ونام حتى سمعت غطيطه. ثم نزلت هذه الآية، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأسه من قُبة أدم، وقال (أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله)"رواه الحاكم".

تنبيهات:

الأول: عبر الله تعالى بقوله ﴿يَعْصِمُكَ﴾ ولم يقل: يحفظك أو يقيك أو يسلمك، مع أن معناها متقارب، أو واحد لأن العصمة تناسب مقام النبوة فيؤخذ منه مراعاة

الأدب في جانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ووجوب اختيار الألفاظ اللائقة بمقامه الكريم.

الثاني: أخبرني الشيخ حمدي أصلان جافا الألباني- وهو من العلماء الذين تلقوا عني في التفسير والأصول- أنه قرأ لمستشرق ألماني- ذكر اسمه- أنه قال: ترك محمد للحراسة، مع تخوفه من المشركين واليهود، اعتماداً على هذه الآية، دليل على صدقه. قلت: هذه ملاحظة معقولة.

وقال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ عصيانهما، وأعيد الأمر بطاعة الرسول لما بيناه في سورة النساء ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾"المائدة:92" وجزاؤكم علينا، شهد الله لرسوله"[1]" بالبلاغ المبين، وتكررت هذه الشهادة في غير آية، ومن هنا لم يكن في حاجة إلى من يشهد له يوم القيامة بالبلاغ، بل هو صلى الله عليه وآله وسلم يشهد على أمته، كما سبق في قوله تعالى ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾"البقرة: 143"وهذا - أي عدم احتياجه إلى من يشهد له- من خصوصياته عليه الصلاة والسلام.

---

1 - ومثل هذه الشهادة قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾"الذاريات: 54" حيث أباح لنبيه الإعراض عن المشركين وأخبر أنه غير ملوم في إعراضه عنهم، وما ذاك إلا لأنه أدى لهم الرسالة، وبذل معهم غاية الجهد، بحيث أنهم اعترفوا بذلك في قولهم ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا، إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾"الفرقان: 41-42" قال الزمخشري: قولهم إن كاد ليضلنا دليل على فرط مجاهدة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في دعوتهم وبذل قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم. مع عرض الآيات والمعجزات عليهم، حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم ا.هـ ويونس عليه السلام حين تولى عن قومه عاتبه الله بما قصه في كتابه.

5- سورة الأنعام

قال المشركون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ائت بمن يشهد لك، فإن أهل الكتاب أنكروك، فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾إن لم يجيبوا، لا جواب غيره، هو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على صدقي، وهذا من دلائل عناية الله بنبيه في رد ما يورده عليه المشركون وأهل الكتاب، وقد نبهنا على هذا فيما سبق ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ معشر العرب ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾"الأنعام:19" أي بلغه القرآن من الإنس والجن وهذا تصريح بعموم نذارته للثقلين ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ محمداً باسمه ونعته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ فلا ينكرونه ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ منهم، حيث أوجبوا لها الخلود في النار بإنكاره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾"الأنعام: 20" به، والآية تسجل الخسران على منكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولو كان مؤمناً بموسى وعيسى عليهما السلام في ادعائه، لأن تكذيبه تكذيب لهما، ثم أخذ يسليه عن تكذيبهم له، فقال سبحانه ﴿قَدْ﴾"[1]" للتحقيق ﴿نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ من تكذيبك وشتمك ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في الباطن، لعلمهم

---

1 - قال الزمخشري: قد بمعنى ربما الذي يجيئ لزيادة الفعل وكثرته كقوله: أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله أي ولكنه كثيراً ما يهلك المال نائله أي عطائه، وهذا من لطائف اللغة العربية وهو التعبير عن المعنى بما يشعر بعكسه، تنبيهاً على أنه بلغ الغاية التي ما بعدها إلا الرجوع إلى الضد، ومثل قد في هذه الآية – في إفادة التكثير – قد في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾"النحل: 103"، ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾"النور: 63"، ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾"النور: 64"، ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾"الأحزاب: 18"، وفي قول موسى لقومه ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾"الصف: 5".

بصدقك وقد كانوا يسمونك الأمين ﴿وَلَـكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أظهر في موضع الإضمار، تصويراً لبشاعة كفرهم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾"الأنعام:33" عناداً ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هذا من جملة تسليته عليه الصلاة والسلام ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فأهلكنا مكذبيهم. فاصبر مثلهم فسيأتيك نصرنا ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾"الأنعام: 34" ما فيه تثبيت قلبك ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ﴾ عظم ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ تدخل فيه ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ تصعد عليه ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ مما اقترحوا عليك ليسلموا، فإنك لا تستطيع ذلك، فاصبر حتى ينصرك الله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هدايتهم ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ لكنه لم يشأ هدايتهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾"الأنعام:35" بذلك، والنهي عن الشيء لا يستلزم وقوعه، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن قط جاهلاً بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يجوز عليه الجهل بذلك، وصح عنه عليه الصلاة والسلام قوله (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، وأنه من قالها حين يصبح حفظ حتى يمسي ومن قالها حين يمسي حفظ حتى يصبح)"رواه البيهقي في الأسماء والصفات" وإنما المراد بالنهي عنه، الأمر باستدامة ضده، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾"القصص: 88" أي دم على ما أنت عليه في التوحيد ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم، فيستجيبون للإيمان ﴿وَالْمَوْتَى﴾ عنى بهم الكفار، لعدم سماعهم القرآن ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾"الأنعام:36" فيعاقبهم على تكذيبهم ﴿وَقَالُوا﴾ أي الكفار ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كالناقة والعصا ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ مما

اقترحتموها ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾"الأنعام:37" أن نزولها بلاء ووباله عليهم، لوجوب إهلاكهم إن لم يؤمنوا، كما حصل للأمم قبلهم، ولكن الله تعالى حكم ببقاء هذه الأمة إلى يوم القيامة وهذا مثل قوله تعالى ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ التي اقترحها كفار مكة ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾"الإسراء:59" حين أرسلنا بها وفق طلبهم، فأهلكناهم ولو أرسلناها إلى هؤلاء وكذبوا بها، لحق عليهم الهلاك، لكنا حكمنا بإمهالهم، لإتمام أمر محمد، وبقاء شريعته وأمته، مع أن القرآن آية كبرى ومعجزة عظمى، أعجز الجن والإنس أن يأتوا بمثله، ولا ببعض ما فيه، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)[1]"رواه أحمد والبخاري ومسلم" وهذا لا يمنع أن يكون له صلى الله عليه وآله وسلم معجزات مادية اقتضاها الحال، واستدعاها الوقت، كالإسراء والمعراج، ونبع الماء من أصابعه الشريفة وحنين الجذع، وانشقاق القمر، ونحو ذلك مما جاء في القرآن، وصرحت به الأحاديث المقطوع بصحتها، وأجمع عليه أهل السنة، وليس في

---

1 - قال بعض العلماء الأندلسيين: إن أعظم المعجزات وأوضحها دلالة القرآن الكريم لأن الخوارق في الغالب، مغايرة للوحي الذي تلقاه النبي، وتأتي المعجزة شاهدة، والقرآن هو نفسه الوحي المدعي وهو الخارق المعجز، فدلالته في عينه، ولا يفتقر إلى دليل أجنبي عنه، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)"رواه أحمد والبخاري ومسلم" يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي، كان المصدق لها أكثر.

الآيتين المذكورتين، ولا في الحديث المذكور، مُتمسَّك للمبتدعة الذين خرجوا عن الإجماع بإنكارها، لأن المراد بالآيتين قطع طمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في إيمان أولئك المشركين، وبيان أن سؤالهم الآيات قصدوا به العناد، لا الاسترشاد، واقرأ قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا﴾"الإسراء:90" الآية، تجدهم بلغوا في العناد حداً يصير معه إيمانهم من قبيل الممتنع، ولذا أيأسه الله من إيمانهم بقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾"البقرة: 6" وأما الحديث فالمراد به أن أعظم معجزة أوتيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي القرآن لما بيَّناه في المقدمة.

طلب المشركون من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعل بينه وبينهم حَكَماً من أحبار اليهود أو أساقفة النصارى، ليخبرهم بما في كتبهم من صفاته، فيقروه عليها، فأنزل الله تعالى رفض طلبهم على لسان رسوله، قل ﴿أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ بيني وبينكم ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿مُفَصَّلًا﴾ مبيناً فيه صفاتي المذكورة في التوراة والإنجيل، وقد حرفها كثير من الأحبار والرهبان، كما سجله القرآن في مواضع، فلا يصلحون لتحكيم، لأن الغرض أعماهم عن الحق، ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ كعبد الله بن سلام والنجاشي ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي الكتاب ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾"الأنعام:114" والنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يمتري في حقية القرآن، ولا يجوز عليه ذلك، والمراد بالنهي عنه، الأمر باستدامة ضده، والتعريض بالمشركين بأن شكهم لا ينبغي، لأنه لا ينبني على أساس، وههنا نكتة تنبيه عليها، وهي أن القرآن إذا قال ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ بإضافة الفعل إلى الله تعالى، فهو يقصد المنصفين كعبد الله بن سلام

وتميم الداري ونحوهما ممن آل بهم الإنصاف إلى الإسلام، وإذا قال ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ببناء الفعل للمجهول، فهو يقصد –غالباً- المتعصبين، الذين أصروا على تكذيبهم بغياً وحسداً، وقد يقصد مجرد التعريف، نحو ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾"المائدة:5" وستأتي تتمة هذه القاعدة في آخر سورة الإسراء، فانتظرها هناك، وشُدَّ عليها يد الضنين.

6- سورة الأعراف

قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في الدنيا ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ في الآخرة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ خُصَّتْ بالذكر، تنبيهاً على أهميتها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ باسمه ونعته، وبيان علاماته التي لا تنطبق على غيره، ومنها ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾"الأعراف:156-157" التي حرمت عليهم في شرعهم، كلحم الإبل، وشحم البقر والغنم على التفصيل والمذكور في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾"الأنعام:146" الآية ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ كالميتة والخنزير والخمر، ويُؤخذ من الآية أن ما أحله النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو حرمه يجب التزامه ولو لم يكن في القرآن، ومن هنا قال صلى الله عليه وآله وسلم: (ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل ما حرم الله)"رواه أحمد" ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ ثقلهم ﴿وَالْأَغْلَالَ﴾ القيود ﴿الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾"الأعراف:157" كوجوب قتل النفس في التوبة، حسبما تقدم في سورة البقرة وكتحريم صيد السمك يوم السبت، حسبما يأتي في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾"الأعراف:163" الآية،

إلى غير ذلك من التشديدات التي كانت في شريعتهم، حتى أنهم أبوا قبول التوراة لشدة أحكامها عليهم، فرفع الله الجبل وهددهم بإسقاطه عليهم إن لم يقبلوها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾"الأعراف:171" بخلاف شريعتنا، فإن تعاليمها سهلة، ولذا قال عليه الصلاة والسلام (بعثت بالحنيفية السمحة)"رواه أحمد" ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ منهم ﴿وَعَزَّرُوهُ ﴾وقروه ﴿وَنَصَرُوهُ ﴾بأنفسهم وأموالهم ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾ القرآن ﴿الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾"الأعراف:157"الفائزون، لا غيرهم ممن بقى على يهوديته أو مسيحيته، ويلاحظ هنا أن الله سمى القرآن نوراً، وكذا سماه في عدة آيات، والنور إشراق لا إحراق معه، يشير إلى سماحة تعاليمه ويسر أحكامه، فهو مشرق غير محرق مثل نور القمر.

أما التوراة، وإن سماها الله نوراً، فقد بين نوع نورها في سورة الأنبياء، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾"الأنبياء:48" فهي ضياء، والضياء إشراق، فيه إحراق، فهو يشير إلى شدة تعاليمها، وثقل أحكامها.

وتتبين لك صحة هذه الملاحظة، حين تقرأ قوله تعالى –في سورة يونس- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾"يونس:5" هذا، وبعد أن سجل الله تعالى بعض صفات نبيه في التوراة والإنجيل، بين عموم رسالته، فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ القرآن، أخذ منه بعض المفسرين أنه رسوله إلى نفسه، وهذا ليس خاصاً به، بل يعم الأنبياء أيضاً، ضرورة أن كل نبي مكلف بالإيمان بما أوحى إليه، وبالعمل به ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

"الأعراف:158" ذكر من أسمائه هنا: الرسول النبي الأمي، وهذا الاسم الأخير، يشير إلى معجزة مادية، دونها معجزة كل نبي، لأن إتيان الأمي بكتاب يعجز الثقلين، مع كونه أعلم الخلق بما تضمنه، إعجاز جاوز حد النهاية، فلا معجزة إلا وهي دونه. قال البوصيري:

كفـاك بـالعلم في الأمي معجـزة   مـن النـبي وبالتأديـب في اليـتم

الصفا فدعاهم فخذاً فخذاً يحذرهم

إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ موضح انذاره بحيث لا يخفى على ناظر.

"صعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الصفا، فدعاهم -أهل مكة-، فخذاً فخذاً، يحذرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم: إن صاحبكم لمجنون بات يهوت إلى الصباح، ""تفسير البيضاوي"، فأنزل الله تعالى –يدافع عنه- ﴿أَ﴾ عموا ﴿وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ فيعلموا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ الذي عرفوه بكمال العقل ورجاحته ﴿مِنْ جِنَّةٍ ﴾ أي جنون ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى ما ﴿هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾"الأعراف: 184" بين الإنذار، وهذا – كما قلنا- من دلائل عناية الله بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

6- سورة الأنفال

ذكر الله تعالى إمداد نبيه عليه الصلاة والسلام بالملائكة في غزوة بدر، وسبق الكلام على ذلك، ومما ذكر هنا –ولم يأت في آل عمران- أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ كفاً من حصى –قبيل بدء القتال- ورمى بها في وجوه الكفار، وهم ألف، فأصابت عيونهم جميعاً وشغلتهم فكانت معجزة، سجلها الله بقوله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ أعين الكفار ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ بالحصى، لأن كفَّاً من الحصى، لا يصيب عيون

جيش كبير، برمية بشر ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾"الأنفال:17" بإيصالها إلى عيونهم، فهي معجزة أيدك الله بها، وإليها أشار البوصيري بقوله:

ورمى بالحصى فأقصد"1" جيشاً   ما الحصى عنده؟ وما الإلقاء؟

وهذه إحدى المعجزات المادية التي اقتضاها الحال، كما أشرنا إليه في سورة الأنعام، بل قتال الملائكة ببدر معجزة مادية أيضاً، شاهدها الصحابة والمشركون وحدثوا"2" عنها ولما أسلم الأنصار، علمت قريش أن أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ازدياد، وأن دينه في علو مستمر، فاجتمع زعماؤهم وزعماء غيرهم من مشركي مكة، في دار الندوة، للتشاور في شأنه، وحضر معهم إبليس لعنه الله، في

---

1 - أي أصاب، يقال أقصد شيئاً: أصابه.

2 - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾"الأنفال: 24"، قال الزمخشري: وحد الضمير-يعني في دعاكم- كما وحده فيما قبله- يعني يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون –لأن استجابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كاستجابته، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد، والمراد بالاستجابة الطاعة والامتثال، وبالدعوة البعث والتحريض، وروى أبو هريرة: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من على باب أبي بن كعب، فناداه وهو في الصلاة، فعجل في صلاته ثم جاء فقال: (ما منعك عن إجابتي؟) قال: كنت أصلي، قال: (ألم تخبر فيما أوحى إلي استجيبوا لله وللرسول) قال: لا جرم لا تدعوني إلا أجبتك "رواه الرازي في تفسيره"، وفيه قولان: أحدهما: أن هذا مما اختص به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والثاني أن دعاءه كان لأمر لم يحتمل التأخير، وإذا وقع مثله للمصلي فله أن يقطع صلاته، قلت: الحديث صحيح، وهو يفيد وجوب إجابة الرسول مطلقاً، لا في خصوص أمر واجب التعجيل، ولهذا أورده من كتب في الخصائص كالبلقيني والسيوطي والقسطلاني وغيرهم مستدلين به على وجوب إجابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، على المصلي ولو كان يصلي فريضة وهو مذهب المالكية والشافعية، وحكاه الزمخشري كما مر في كلامه، وهو حنفي، فإجابته عليه الصلاة والسلام طاعة مفترضة.

صورة شيخ نجدي وتبادلوا الرأي، وانتهوا إلى قتله عليه السلام، فبعث الله إليه جبريل عليه السلام، يخبره بائتمار القوم به، وبأن الله يأذن له في الهجرة، فترك صلى الله عليه وآله وسلم علياً رضي الله عنه، ينام في فراشه، وقال له (لن يصيبك أذى) وخرج من البيت، والمشركون مُحْدِقون به، وقرأ أول سورة يس، حتى بلغ ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾"يس: 9" وأخذ كفاً من تراب، ورماهم بها، وهو يقول (شاهت الوجوه)"رواه أحمد" فأخذهم النوم، ومضى لحال سبيله، ولم يروه ولا شعروا به، إلا في اليوم الثاني، حين أخبرهم مخبر أن محمداً ذهب ولم يروه، وأنه رماهم بكف من تراب، فقاموا ينفضون التراب عن رؤسهم، وانصرفوا خائبين، لم ينالوه بأي أذى، وهذه هي معجزة مادية سجلها الله تعالى، وهو يذكّر نبيه بنعمته عليه ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يحتالون في أذيتك، ويتشاورون في القضاء عليك، وهم بدار الندوة ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ يحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ كلهم بأن يضربوك بسيوفهم ضربة رجل واحد، فيتفرق دمك في قبائل العرب، ولا يستطيع بنو هاشم مقاتلتهم، فيضطرون إلى قبول ديتك، وهذا رأي أبي جهل وأيده الشيخ النجدي لعنهما الله ﴿أَوْ﴾ يركبوك بعيراً و﴿يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ بك ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ بهم، بأن نقض ما أبرموا، فنجاك وخيبهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾"الأنفال: 30" أقدرهم على مجازاتهم، جرت سنة الله مع المكذبين –إذ تحدوا رسولهم - أن يهلكهم، ورسولهم حي، ليشفي صدره بهلاكهم، فأهلك قوم نوح بالطوفان، وقوم هود بالصَّيحة، وقوم صالح بالريح الصرصر، وقوم لوط بالقذف، وقوم شعيب بالظُّلة، وفرعون بالغرق، وقارون بالخسف، إلى غير ذلك، لكن لما بعث نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، رفع الله القذف والمسخ والخسف وسائر أنواع العذاب التي عُذِّب بها الأمم السابقة، إكراماً

له، وجعل وجوده عليه الصلاة والسلام مانعاً من نزول العذاب بأمته، رغم طلبهم له، اقرأ قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا﴾ أي كفار مكة ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا﴾ القرآن ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ المنزل ﴿مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾"الأنفال:32" كالخسف أو الغرق، وهذا نهاية العناد والتحدي، قال الله تعالى يخاطب نبيه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾"الأنفال:33" فوجودك مانع من نزول العذاب الذي طلبوه، لأن الحكمة اقتضت إمهالهم ليتم أمرك، ويظهر دينك، وإنما يعذبهم عذاباً لا استئصال فيه، بأن ينصرك عليهم في الجهاد كما في آية الإمداد بالملائكة، وكما في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾"التوبة:14-15" الآية، أما قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾"الأنفال:33" حيث يقولون في طوافهم: غفرانك، غفرانك فهو يشير إلى مانع آخر يمنع من عذابهم، وهو كونهم في حرم الله، يطوفون به ويستغفرونه، لكن هذا ليس بدائم، بل هو مرتبط ببقائهم بمكة، حيث يطوفون ويستغفرون، فلما أراد تعذيبهم، أخرجهم إلى بدر، حيث أصابهم القتل والأسر والهوان، ثم تتابعت عليهم النكبات، في كثير من الغزوات، حتى فتح الله مكة وطهرها من الشرك والمشركين.

ومن هنا لم يؤكد النفي في جانب استغفارهم، وأكد بلام الجحود في جانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إيذاناً بدوام مانعيته، فلا خسف ولا مسخ ولا عذاب استئصال، في الأمة المحمدية، نعم ثبت في الأحاديث الصحيحة وقوع المسخ لأفراد من هذه الأمة باستحلالهم الخمر والزنا وبعض المنكرات في آخر الزمان، قرب قيام الساعة، كما وقعت حوادث فردية، أعرف منها ثلاثة: حادث ذكرته في كتابي (واضح

البرهان على تحريم الخمر في القرآن) والثاني ذكره العلامة أبو عبد الله محمد بن النعمان التلمساني في كتابه (مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام في اليقظة والمنام) والثالث ذكره الشعراني في الباب الثاني عشر من (المنن الكبرى) والسبب في الحوادث الثلاثة، سبُّ الشيخين رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾"الأنفال:69" يصرح بإحلال الغنائم للأمة المحمدية، وهذا مما فُضِّل به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء، كما في الحديث المار في سورة آل عمران، وكان من قبلنا إذا غنموا غنائم، جمعوها في مكان، فتأتي نار من السماء فتأكلها، كذلك جاء مبيناً في حديث الصحيحين، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

8- سورة التوبة

دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين إلى غزوة تبوك، وكانوا في عسرة وضيق، وكان الوقت شديد الحر، فشق عليهم ذلك، وتأخر كثير منهم عن الخروج، فأنزل الله تعالى في لومهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ﴾ تباطأتم عن الجهاد، وأخلدتم ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ والاستفهام للتوبيخ والإنكار ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ بدل نعيمها ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي﴾ مقابلة ﴿الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾"التوبة:38" حقير ﴿إِلاَّ تَنفِرُواْ﴾ مع الرسول ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يأت بهم بدلاً عنكم ﴿وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾"التوبة:39" ومنه عذابكم واستبدال قوم غيركم ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ﴾ أي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ﴾ حين ﴿أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حملوه على الخروج من مكة، لما اجتمعوا بدار الندوة، واتفقوا على قتله ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾

حال كونه أحد اثنين والثاني أبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ بجبل ثور ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ الذي رأى الكفار مقابل الغار، يبحثون عنهما فقال: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا، فأجابه ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ وما ظنك باثنين الله ثالثهما؟! ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾أي أدام نزول طمأنينته عليه ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾"التوبة:40" يعني الملائكة، فالله الذي نصره في هذا الموطن الدقيق الحرج لا يتخلى عنه أبداً، وفي هذا إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم موعود من الله بالنصر في جميع المواطن، كما تقدم في سورة النساء، وهذا مما خص به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم.

لما عزم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الخروج إلى تبوك، استأذنه بعض المنافقين في التخلف لأعذار أبدوها فأذن لهم فيه، لسببين:

(أحدهما) أن الله لم يتقدم إليه في ذلك بأمر ولا نهي.

(ثانيهما) أنه لم يرد أن يجبرهم على الخروج معه، فقد يكون في خروجهم على غير إرادتهم ضرر، فأنزل الله تعالى يبين له أن ترك الإذن لهم كان أولى، لما يترتب عليه من انكشاف الصادق من الكاذب فيما أبدوه من الأعذار، واستفتح ما أنزله بجملة دعائية هي قوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ على عادة العرب، في استفتاح كلامهم بهذه الجملة، أو بقولهم: غفر الله لك، أو جعلت فداك أو نحوها، يقصدون تكريم المخاطب إذا كان عظيم القدر، ولا يقصدون المعنى الوصفي للجملة، فالآية –بحسب الأسلوب العربي- تفيد تكريم النبي وتعظيمه، خلافاً لمن وهم ففهم منها عتابه أو تأنيبه لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يخالف أمراً ولا نهياً، فيستوجب ما فهمه ذلك

الواهم، وقوله تعالى ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ وهلا تركتهم ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾"التوبة:43".

هو محط البيان المذكور، وأولوية ترك الإذن سياسة، لا علاقة لها بالدين والمقصود أن أسلوب الآية من الأساليب التي تفيد تعظيم الله لنبيه حين يخاطبه.

تكلم جماعة من المنافقين في النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما لا يليق، فقال بعضهم لبعض: كفوا عن هذا الكلام، لئلا يبلغه فيؤذينا، فقال الجُلاَس –بضم الجيم وتخفيف اللام- ابن سويد: نقول ما شئنا، ثم نأتيه، فننكر ونحلف، فيصدقنا، فإنما محمد أذن، فأنزل الله تعالى يفضحهم، ويدافع عن نبيه ﴿وَمِنْهُمُ﴾ أي المنافقين ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ بعيبه وذكره بوصف النبوة تكريماً له وتصوير لقبح إذايتهم، لأن إذاية النبي أقبح من إذاية جميع الناس، إذ هي إذاية لله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا نُهوا عن ذلك ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ يسمع كل قول ويقبله، فإذا حلفنا له أننا لم نقل، صدقنا، وفي هذا وصفه بالغفلة، قال الله تعالى ﴿قُلْ﴾ هو ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ مستمع خير، يغضي عن الشر تكرماً ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ﴾ يصدق ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيما أخبروه، لا لغيرهم ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي أظهروا الإيمان منكم معشر المنافقين، فهو يرفق بكم، ولا يكشف أسراركم، لكن لا يصدقكم، ثم توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾"التوبة:61" وإذا وازنت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾"الصف: 5" الآية، وجدت رتبة كليم الله، دون رتبة حبيب الله بمراحل"[1].

1 - قال الزمخشري في هذه الآية: الأذن الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد، سمى بالجارحة التي هي آلة السماع كأن جملته أذن سامعة، ونظيره قولهم للربيئة: عين، وإيذاؤهم له هو قولهم

ثم قال تعالى -بعد آيات في الموضوع- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ ما بلغك عنهم من سبك والعيب فيك ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ حيث قال الجُلاَس: إن كان محمد صادقاً فيما يقول، فنحن شر من الحمير، وقال عبد الله بن أبي بن سلول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل أفادت الآية أن العيب في النبي صلى الله عليه وآله وسلم كفر، وسبق ذلك في سورة النساء ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أي أظهروا الكفر وهو العيب في النبي- بعد إظهارهم الإسلام، لأنهم منافقون ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ من الفتك بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة، عند عودته من تبوك، وكانوا اثنى عشر رجلاً هموا بذلك، فأعلمه الله بم هموا به، فأخذ حيطته وأبطل مكيدتهم، وهذا مما اختص الله به نبينا، حيث يعلمه بما يدبر أعداؤه من مكايد لاغتياله، فلا يصلون إلى مرادهم، ويرجعون خائبين، على حين أن كثيراً من الأنبياء قتلوا بأيدي أعدائهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ﴾"آل عمران: 146" بالبناء للمجهول ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ من النبي حيث أرادوا قتله ﴿ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾"التوبة: 74"بالغنائم، بعد أن كانوا في جهد وفاقة، فلم ينلهم من النبي إلا الغنى، وهو مما يحب، فالآية من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم، وهو نوع من البلاغة

فيه: أذن، وأذن خير كقولك: رجل صدق، تريد الجودة والصلاح كأنه قيل: نعم هو أذن، ولكن نِعم الأذن، ثم فسر كونه أذن خير بأنه يصدق بالله لما قام عنده من الأدلة، ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار، وهو رحمة لمن آمن منكم، أي أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أذن كما قلتم إلا أنه أذن خير لكم لا أذن سوء، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسره بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته وشهامته وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة ا.هوهو نفيس.

معروف، كأنه قيل: ليس في النبي ما يعاب، إلا أنه أغناهم بعد الفاقة، وهذا لا يعاب فهو إذن لا عيب فيه.

ونزل في مُزينة وجُهينة –بالتصغير- وكانوا مؤمنين، ينفقون ما لهم في الجهاد ونحوه، يقصدون ثواب الله تعالى، ودعاء النبي لهم ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ في سبيل الله ﴿قُرُبَاتٍ﴾ تقربه ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَ﴾ وسيلة إلى ﴿صَلَوَاتِ﴾ دعوات ﴿الرَّسُولِ﴾ له ﴿أَلَا إِنَّهَا﴾ نفقتهم ﴿قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ عند الله ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ جنته ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾"التوبة: 99" أفادت الآية أن استجلاب دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعمل الطاعة، من مقاصد التقرب إلى الله تعالى، الموجبة لرضاه، يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ يأخذها ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ ادع لهم، فأمره بالدعاء لهم، وعلل هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ طمأنينة لقلوبهم، ورحمة لهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾"التوبة: 103" في هذه الجملة إشارة إلى أن دعاءه عليه الصلاة والسلام، مسموع عند الله سماع قبول.

وقال تعالى -بعد الإخبار بقبول توبة المتخلفين عن تبوك من المؤمنين- ﴿مَا كَانَ﴾ يصح ﴿لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾إذا خرج لغزوة ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾"التوبة: 120" بأن يصونوها عما رضيه لنفسه من الشدائد، أي لا يجوز لهم ذلك، فهو نهي في صيغة خبر، للدلالة على تأكده وثبوته.

ويؤخذ منه أن الواجب على المؤمنين أن يؤثروا نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، على أنفسهم، لأنها نفس كريمة على الله تعالى.

وقال عز وجل ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي منكم تعرفونه وتعرفون نسبه فيكم ﴿عَزِيزٌ ﴾ شديد ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ما مصدرية، أي شديد عليه عنتكم ومشقتكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي على هدايتكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾"التوبة:128" يريد الخير لهم، والرأفة شدة الرحمة، قال الحسين بن الفضل: لم يجمع الله لأحد من أنبيائه اسمين من أسمائه تعالى إلا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسماه ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وقال ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾"البقرة:143" قلت: سماه فيما سبق نوراً أيضاً، وقال ﴿اللَّه نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1]"النور:35".

9- سورة يونس عليه السلام

رد الله تعالى على المشركين الذين كذبوا بالقرآن الكريم، وزعموا أنه مفترى، فقال سبحانه ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لأنه لا يقدر على أن يقوله بشر من قِبَل نفسه، ولو كان أبلغَ الناس وأفصحهم ﴿وَلَكِنْ﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾تبين ما كتبه الله من الأحكام والغيوب والأخبار وحقائق العلوم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾"يونس:37" ثم صرح بدعواهم الباطلة ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ في فصاحة تراكيبها، وبلاغة أساليبها، وإحكام مبانيها، وسمو معانيها ﴿الله وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من آلهتكم وأنصاركم ﴿إِنْ كُنْتُمْ

1- وسماه كريماً في سورة الحاقة ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾"الحاقة: 40"، والكريم من أسمائه الحسنى، وسماه مبيناً في سورة الدخان ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾"الدخان: 13" وقال تعالى: وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾"النور: 25".

صَادِقِينَ﴾"يونس:38" في أنه افتراء، وبالضرورة لم يستطيعوا، لأن القرآن فوق قدرة البشر، وقد نوع الله التحدي بالقرآن، فتحدى بسورة منه كما في هذه الآية، وهي صادقة بأقصر سورة كالكوثر، وتحدى بعشر سور منه، في قوله تعالى ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾"هود:13" وبحديث مثله، في قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾"الطور:34" وهو صادق بالكثير والقليل منه، وأعم من التحدي بسورة، وبجميعه، في قوله تعالى ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾"الإسراء:88" وذلك لإظهار فضيلة نبيه، بعلو معجزته على جميع المعجزات، وبقائها ما بقيت الأرض والسماوات.

10- سورة الرعد

عاب أهل الكتاب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم كثرة الزوجات، وقالوا – كما تقدم- لو كان نبياً لترك النساء، وزهد في الدنيا، فرد الله عليهم بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ كإبراهيم ويعقوب وداود وسليمان عليهم السلام، فليس النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدعاً منهم، والزواج لا ينافي الزهد، وإنما ينافيه التوسع في المباحات من المطعومات وغيرها، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم، كان يعيش عيشة الكفاف والتقلل، كما هو معروف من سيرته، فكان يمر الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار لطبخ، إن هما إلا الأسودان: التمر والماء، كما تقول عائشة رضي الله عنها، وكانت الأموال تأتيه من الفيء والمغانم، فيفرقها ويبيت على الطَّوَى، ويأتيه السائل، فلا يجد ما يعطيه، فيأمره أن يستدين على حسابه، وانتقل صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى، ولم يضع لبنة على لبنة في بناء، سوى بيته الذي كان يسكنه، ولم يترك ديناراً ولا درهماً، ومن أعجب أحواله

صلى الله عليه وآله وسلم، أنه فرق أموالاً جاءته في بعض المرات، وبقيت منها دراهم دون العشرة، نسيها، فأخذه تلك الليلة أرق، وهو يقول لعائشة (مالي؟) حتى تذكر الدراهم المتبقاة، فبعث بها إلى من يستحقها، وقال (ما كان ظن محمد بربه أن ينام وفي بيته هذه الدراهم؟)"[1]" ثم نام قرير العين، فأي زهد يوازي هذا أو يقاربه؟!.

وقال الكفار من المشركين والكتابيين: لو كان رسولاً لأتى بما نطلبه من الآيات فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لأن الرسل عبيد الله تعالى، لا يقدرون على شيء إلا بإرادته سبحانه.

وقالوا أيضاً: لو كان رسولاً، لحصل ما توعدنا به من العذاب على تكذيبه، فرد عليهم بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾"الرعد:38" وعند انتهاء الأجل المكتوب، ينزل بهم ما أوعدوا به من العذاب، وقد حصل ذلك في غزوة بدر وخيبر وغيرهما.

وقالوا أيضاً: لو كان صادقاً ما نسخ الأحكام التي جاءت في التوراة والإنجيل، فرد عليهم بقوله سبحانه: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأحكام ﴿وَيُثْبِتُ﴾ما يشاء منها ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾"الرعد:39" وهو اللوح المحفوظ المشتمل على الكتب المذكورة بأحكامها الممحوة والثابتة.

---

1 - والأقرب للصواب ما رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال للسيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها وهي مسندته إلى صدرها: (يا عائشة ما فعلت تلك الذهب؟) قالت: هي عندي، قال: (فأنفقيها)! ثم غشي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو على صدرها. فلما أفاق قال: (أأنفقت تلك الذهب يا عائشة؟) قالت: لا والله يا رسول الله! قالت: فدعا بها فوضعها في كفه فعدها فإذا هي ستة دنانير، فقال: (ما ظن محمد بربه أن لو لقي الله وهذه عنده؟) فأنفقها كلها ومات من ذلك اليوم.

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾"البروج:21-22" فهذه أربع آيات، رد الله بها شبه الكفار ودعاويهم، ثم أتبعها برد دعوى خامسة، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾"الرعد:43" من منصفي اليهود والنصارى، وهذا يفيد عناية الله بنبيه، في دفع ما يورد عليه من دعاوى وشبه، ولم يحصل مثله لنبي ولا رسول قبله.

11- سورة الحِجْر

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾"الحجر:9" تولى الله حفظ كتابه، فلا يدخله تبديل ولا تحريف، ولا زيادة ولا نقص، فهو باقٍ ما بقي الدهر، مصدر السعادة، ومنهل العرفان، ومرشد الضال، وهادي الحيران، وفي هذا تكريم لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم بدوام معجزته، وخلود شريعته، على حين أن التوراة، وكّل الله حفظها إلى أحبار اليهود، كما في سورة المائدة -آية 44- فحرفوها وغيروا كثيراً من أحكامها، وكذلك حصل في الإنجيل"1"، فلا يوجد كتاب سماوي سالم من التحريف، سوى القرآن الكريم"2".

1- بل لم يكتب الإنجيل كما نبهنا عليه في أول التعليقات.

2- وقال الزمخشري: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾"الحجر: 9"، ردٌ لإنكارهم واستهزائهم في قولهم ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾"الحجر: 6"، وكذلك قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبين يديه ومن خلفه رصد حتى نزل وبلغ محفوظاً من الشياطين، وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتبديل وتحريف بخلاف الكتب المتقدمة، فإنه لم يتول حفظها وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغياً فكان التحريف، ولم يَكِل القرآن إلى غير حفظه، فإن قلت: فحين كان قوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ رداً لإنكارهم واستهزائهم، فكيف اتصل به قوله ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾"الحجر:9" ؟، قلت: قد جعل ذلك

(تنبيه) استدل الحافظ ابن حزم بالآية المذكورة، على حفظ السنة أيضاً من التبديل والضياع وهو استدلال ظاهر، لأن السنة وحي كالقرآن، إلا أنها وحي غير متلو، ولأنها بيان لما فيه من الأحكام والمعاني، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾"النحل: 44" الآية، والبيان يجب أن يكون محفوظاً كما حفظ المبين، وقد قيض الله للسنة رجالاً حفظوها غاية الحفظ، وضبطوها نهاية الضبط، فلا يحكمون لحديث بالصحة، حتى يمر بمراحل من النقد والتمحيص، تبتدئ برواته واحداً واحداً من حيث العدالة والثقة، ومشافهة كل راو لشيخه، ثم تنتهي بالمتن من حيث سلامة معناه من النكارة، ولفظه من الشذوذ والإدراج، فإن حصل عندهم أدنى شبهة فيه، حكموا عليه بالضعف أو النكارة أو الوضع، حسبما تقتضيه الشبهة قوة وضعفاً، ولقد بلغ من شدة تحريهم وتيقظهم أنهم يستخرجون كلمة من الحديث فيحكمون بوضعها وحدها مثل حديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) حكموا بوضع (مسلمة) لأنهم توصلوا ببحثهم إلى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يقلها، وكذلك كلمة (ثلاث) من حديث (حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة) حكموا بوضعها أيضاً، للسبب المذكور، ومثل هذا كثير، لا يدركه إلا من تعمق في علوم السنة المطهرة، وكان من جملة خدمتها، جعلنا الله منهم بمنه.

دليلاً على أنه مُنزل من عنده آية؛ لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه ا.هـ، قلت: فالآية من قبيل دفاع الله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال سبحانه ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ﴾ أي قوم لوط أو قريشاً ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ "الحجر:72" يترددون، لعمرك كلمة قسم، أي وحياتك، أقسم الله بحياة نبيه عليه الصلاة والسلام، ولم يقسم بحياة نبي غيره، ولا رسول ولا ملك، وهذا تشريف كبير، لا يحتاج إلى بيان قال ابن عباس –في لعمرك-:

معناه: وحياتك يا محمد، وقال: ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته، وذهب بعض المفسرين إلى أن في الآية حذفاً، تقديره: قالت الملائكة: لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون، والخطاب موجه إلى لوط عليه السلام، فهم يقسمون بحياته على أن قومه يعمهون، وهذا قول ضعيف، رده الإمام ابن القيم في (أقسام القرآن) وأجاد، ومما يؤيد ضعفه أنه يحتج إلى تقدير ما سبق، وعدم التقدير أولى لأنه الأصل، وأيضاً إذا احتمل كلام في القرآن أن يكون كلام الله تعالى، أو محكياً على لسان ملك أو نبي مثلاً، فالواجب حمله على الأول، ولا يصرف إلى الثاني إلا لدليل قوي، وأيضاً فالمناسب أن يكون هذا القسم من إنشاء الله تعالى عظم به أفضل مخلوق عنده، كما أنشأ أقساماً غيره ببعض مخلوقاته، تعظيماً لها أو تنبيهاً على ما أودع فيها من الفوائد والحكم، وأيضاً فكيف يصح ادعاء إقسام الملائكة بحياة لوط؟ ومن أين يأتي به مدعيه؟ ولم يرد به حديث ولا أثر؟ وأيضاً ففي حمل الآية عليه تخريج لها على معنى دائرة بين الحرمة والكراهة وهو الإقسام بغير الله تعالى، هذا إن صح أن الملائكة أقسموا بحياة لوط عليه السلام، لكنه لم ينقل، على أن الملائكة عليهم السلام أعرف بعظمة الله وبجلاله، فيكف يقدموا على الحلف بغيره؟!.

فإن قيل: قد أقسم الله بالشمس والقمر والنجم والضحى والنهار والليل ونحو ذلك، فهل هذا يقلل من قيمة القسم في هذه الآية؟ فالجواب: أن الله تعالى أقسم بالأشياء المذكورة وما في معناها من بعض المأكولات أو البلاد أو العصر، ليدل على عظيم قدرته، وكبير فضله ومنته، لتسخير هذه المخلوقات لنفعتنا، وإيجادها لمصلحتنا.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾"إبراهيم:32"، وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾"الجاثية: 13" فكان في الإقسام بها تذكير لنعمة الله علينا فيها، أما القسم الذي يقتضي تعظيم المقسم به فلا يكون إلا بالله، أو بإحدى صفاته، نحو ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾"التغابن: 7"ونحو ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾"ق: 1" وهذا هو المراد هنا، فإن الله تعالى عظم نبيه، حين أقسم بحياته المليئة بالخيرات والبركات، حياة أنقذ صاحبها العالم من ظلمات الجهل والشرك والظلم والفوضى، إلى نور العلم والتوحيد والعدل والنظام، وقام لله بحق طاعته والدعوة إليه، وكان مربي رجال، ومنشئ شعوب، ومهذب نفوس ومعلم أخلاق، فلا جرم أن كرمه مولاه بهذا التكريم، واختصه به، وقد استنبط منه الإمام أحمد أن الحلف بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ينعقد، وفيه الكفارة، نقله الحافظ السيوطي في (الإكليل في استنباط التنزيل).

وقال تعالى يمتن على نبيه- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ هي الفاتحة ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾"الحجر:87" في هذا تشريف يفوق ما أوتي النبيون جميعاً، كما سبق في المقدمة، وخصت الفاتحة بالذكر- مع أنها من القرآن- تنبيهاً على عظم شأنها، بحيث

يكون إيتاؤها وحدها كافياً في التشريف، لاشتمالها على معاني القرآن إجمالاً، حسبما بيناه في كتاب (جواهر البيان في تناسب سور القرآن).

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أول الأمر يدعو إلى الإسلام مختفياً، ويأمر من آمن به بإخفاء إيمانه، ثم أمره الله تعالى بإعلان الدعوة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾"الحجر:94" فأعلن صلى الله عليه وآله وسلم الدعوة، وكان بعض المشركين يستهزئون به وهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحر بن قيس، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث. فأنزل الله في شأنهم ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾"الحجر:95" الآية. فأصيب كل واحد منهم بداء مات به ميتة سوء، وهلكوا في أوقات متقاربة.

وهذا مما خص به نبينا، قال البوصيري:

وكفاه المستهزئين وكم سا ... ء نبياً من قومه استهزاء

12- سورة النحل

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾"النحل:44" وكل الله إلى نبيه تبيين القرآن، وشرح ما فيه من الأحكام، وتوضيح ما أجمله من المعاني وتفسير ما تضمنه من الإشارات، وهذه الآية تبطل نِحْلة أولئك المبتدعة الذين يردون ما صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير بعض ما أبهمه القرآن، فلم يقبلوا الأحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام، تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾"النساء:159" ولم يقبلوا الأحاديث الواردة في تعيين العبد، في قصة موسى بأنه الخضر عليهما السلام: ولم يقبلوا الأحاديث الصريحة بأن الرؤية في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً

أُخْرَى، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾"النجم:13-14"حصلت من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو عند السدرة ليلة المعراج، يقظة لا مناماً، إلى غير ذلك، مع أنه لو لم يكل الله إلى نبيه بيان القرآن، لكان الواجب اتباع بيانه، لأنه أعلم بمعاني ما أنزل إليه، بل قرر العلماء وجوب الرجوع إلى الصحابة في التفسير، وعللوا ذلك بأن الصحابة شاهدوا التنزيل، وعرفوا المراد منه.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من أمور الدين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾"النحل:64" هذه الآية تؤيد الآية السابقة وتؤكدها، وكلتاهما تفيدان وجوب الرجوع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أمور الدين أصولهِ وفروعهِ، وعلى هذا إجماع الأمة.

من الشبه التي زعم الكفار بسببها أن القرآن مفترى، وجود الناسخ والمنسوخ فيه فرد الله عليهم مبيناً جهلهم- بقوله سبحان: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ بنسخها وإنزال غيرها ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ جملة معترضة بين الشرط وجوابه، أتى بها لتسليته صلى الله عليه وآله وسلم عن قولهم فيه ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾"النحل:101" حقية القرآن، ولا فائدة النسخ التي ترجع لمصلحة المكلف، إما بالتخفيف إن كان النسخ من أشد إلى أخف، وإما بكثرة الثواب إن كان من أخف إلى أشد، مع قصد امتحانه، ليختبر عزمه على فعل ما أمره به، وجملة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تفي أن أقلهم يعلمون حقية القرآن، ولكنهم ينكرونه عناداً. فهم بين جاهل وجاحد.

ثم صرح بإبطال زعمهم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ جبريل عليه السلام ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾"النحل:102"

في هذا تعريض بأنه خسار على غيرهم، كما قال تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾"الإسراء:82".

ومما تعلق به الكفار في إبطال القرآن، ودعواهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلقاه من حداد رومي، كان نصرانياً، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدخل عليه، فأبطل الله هذه الدعوى بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ أي علمنا ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ هو الحداد المذكور ﴿لِسَانُ﴾ أي لغة ﴿الَّذِي يُلْحِدُونَ﴾ يميلون ﴿إِلَيْهِ﴾ أنه يعلمه ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ لأنه رومي ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾"النحل:103" ذو فصاحة وبيان، فكيف يعلمه أعجمي؟! والتعبير بقد، إشارة لتقليل القائلين لهذه الدعوى، وهذا يؤكد ما قدمناه أن الله تعالى تولى الدفاع عن نبيه، في جميع ما أورد عليه، عناية خاصة به، دون سائر أنبيائه عليه وعليهم الصلاة والسلام، ثم عقب تعالى بقوله ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن، بقولهم: هو من قول البشر ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾"النحل:105" في قولهم يعلمه بشر، في هاتين الجملتين عدة مؤكدات: إنما المفيدة لحصر الافتراء فيهم، وإيراد الجملة الثانية معرفة الطرفين، وضمير الفصل، وكون المسند إليه اسم إشارة للبعيد تحقيراً لهم، وكل هذه المؤكدات رد لقولهم السابق: إنما أنت مفتر"[1].

1- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾"النحل: 123"، قال الزمخشري: في ﴿ثُمَّ﴾ هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإجلال محله والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة وأجل ما أوتي من النعمة اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ملته من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها، قال ابن المنير – تعليقاً عليه-: وإنما تفيد ذلك ثم لأنها في أصل وضعها لتراخي المعطوف عن المعطوف عليه

13- سورة الإسراء

قال تعالى –ينوه بمعجزة من أهم المعجزات التي أكرم بها نبيه صلى الله عليه وآله وسلم- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَيْلًا﴾ منصوب على الظرفية، وصرح به -مع أن الإسراء لا يكون إلا بالليل- إشارة إلى تقليل مدته مع بعد المسافة ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بمكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ بالشام ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ بالمياه والثمار ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي عجائب قدرتنا. وفي هذا إشارة إلى المعراج الذي رأى فيه من الآيات ما تحدث عنه في الأحاديث المتواترة ﴿ إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾"الإسراء:1" في هذه الآية دليل على أن الإسراء كان في اليقظة حقيقة، لا جولة روحية، ولا رؤيا منامية، وبيان ذلك من وجوه:

(الأول) استفتاحها بالتسبيح الذي يقال عند الأمور العظيمة، والخوارق العجيبة استعظاماً لقدرة الله تعالى، واعترافاً بنفاذ مشيئته.

(الثاني) لفظ ﴿أَسْرَى﴾ فإنه نص في الانتقال الجسمي، ولو كان روحياً لقال الله: أرى عبده، كما قال سبحانه ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾"الفتح:27" فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم رأى بالمدينة -قبل خروجه إلى الحديبية- أنه دخل مكة، وطاف بالكعبة وحلق رأسه، إلخ فسماها الله رؤيا، ولم يسمها إسراء، لأنها

في الزمان، ثم استعملت في تراخيه عنه في علو الرتبة بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة وأشمخ محلاً مما عطف عليه، فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال تعالى: وهاهنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً وأرفع رتبة وأبعد رفعة وهو: أن النبي الأمي الذي هو سيد البشر متبع لملة إبراهيم ومأمور باتباعه بالوحي متلو أمره بذلك في القرآن العظيم، ففي ذلك تعظيم لهما جميعاً لكن نصيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من هذا التعظيم أوفر وأكبر على ما مهدناه.

كانت في المنام، وكذلك قال في غزوة بدر ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾"الأنفال:43" ولما عبر هنا بأَسرى علمنا أنه قصد مدلوله الصريح.

(الثالث) لفظ ﴿عَبْدِهِ﴾ فإنه نص في الشخص الجسمي المسمى بمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(الرابع) لفظ ﴿لَيْلًا﴾ الذي أتى ليدل على تحقيق معنى المعجزة، لأن المسافة بين مكة وبيت المقدس، بعيدة ولذا قيل ﴿الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ وكان أهل مكة يقطعونها في شهر، على الإبل فإذا قطعها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جزء من الليل بجسمه المادي كانت معجزة عظيمة، تستحق التنويه والتسجيل.

(الخامس) قوله تعالى ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ فإنه إنما يقال فيما يرى في اليقظة رؤية حقيقية، ولا يقال فيما يرى روحياً إلا بالتقييد، كما في قوله تعالى ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾.

(السادس) قوله ﴿إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إن كان الضمير يعود على الله –وهو المشهور- فتذييل الآية بهذه الجملة، يفيد أن الله تعالى كان مع نبيه في هذه الرحلة الخارقة للمعتاد المتعارف للناس في رحلاتهم منذ بدء الخليقة، واختيار هاتين الصفتين لإفادة كمال العناية، وغاية التأييد والرعاية، وهذا كما قال تعالى لموسى وهارون، حين أبديا تخوفهما من طغيان فرعون، ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾"طه:46" وإن كان الضمير يعود على النبي صلى الله عليه وآله وسلم –كما قيل به- فالتذييل يفيد أنه عليه الصلاة والسلام كان سميعاً لما أُلقي إليه، بصيراً لما رآه من الآيات، لم يدهش لبه، ولا زاغ بصره، ولهذا قال تعالى –حين أشار إلى المعراج- ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾"النجم:17".

(السابع) إن أهل مكة –وهم عرب فصحاء- فهموا من الإسراء معناه المعروف لهم في لغتهم، ولذلك كذبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين أخبرهم به، وزعموا أنه أتى بما لا يقبل، وسألوه –امتحاناً- أن يصف لهم بيت المقدس، لأنهم يعلمون أنه لم يذهب إليه قبل هذه الرحلة، بل ارتد بعض ضعفاء العقيدة، عن الإسلام، حين سمعوا بهذه المعجزة، لأن عقولهم ضاقت عن قبولها.

(الثامن) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل لأهل مكة الذين كذبوه، ولا لمن ارتد عن الإسلام: إن الإسراء كان مناماً أو جولة روحية، فيريحهم من خطيئة التكذيب وجريمة الارتداد بل أقرهم على ما فهموه، ووصف لهم بيت المقدس حين امتحنوه بالسؤال عنه، وما يروى عن عائشة رضي الله عنها أنها لم تفقد جسد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، باطل مكذوب، لأنها لم تبلغ إذ ذاك السنة الرابعة من عمرها، بل الثابت في كتب السيرة والحديث أن أم هانئ أخت علي رضي الله عنها، فقدته تلك الليلة –وكان نائماً عندها- فباتت قلقة عليه، خشية أن يكون اغتيل. حتى رجع عند الفجر، وأخبرها برحلته فاطمأنت، وترجته ألا يحدث بها قريشاً لئلا يكذبوه.

أما قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾"الإسراء: 60" فلا يدل على أن الإسراء كان مناماً، كما زعم من لا فهم له. بل يدل على نقيض ذلك، وبيانه من وجوه:

(أحدها) أن الرؤيا أحد مصادر رأى البصرية، كما في معاجم اللغة، ويستعمل أيضاً في الرؤيا المنامية، على سبيل الاشتراك اللفظي، والقاعدة في المشترك ألا يجزم

فيه بأحد المعاني إلا لدليل، والدليل هنا يقتضي أن الرؤيا بصرية، وهو الآية السابقة والوجه الذي بعده، وهو:

(ثانيها) قوله ﴿فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ أي أهل مكة، حيث كذبوا بالإسراء، وقالوا: نحن نذهب إلى بيت المقدس في شهر، ومحمد يزعم أنه أتاه في ليلة!! ولو كانت الرؤيا منامية ما افتتنوا، لعلمهم أنها تتسع لهذا ولأكثر منه، وقد كان الواحد منهم يرى في نومه أنه ذهب إلى الشام أو الحبشة أو فارس، ويحدث بها أصحابه، وربما التمس من يعبرها له، ولا يرون فيها ما ينكر.

(ثالثهما) قوله تعالى ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ والمراد بها شجرة الزقوم لقوله سبحانه ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ "الصافات:62-63" ووجه فتنتهم بها قولهم النار تحرق الشجر، فكيف تنبته؟!! كذلك فتنوا بالإسراء وقالوا ما سبق.

فدلالة السياق، تقتضي أن الرؤيا بصرية وهو واضح.

قال الزمخشري. في الكشاف: قوله ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ إشارة إلى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾"الإسراء:55" دلالة على وجه تفضيله، وهو أنه خاتم النبيين، وأن أمته خير الأمم، لأن ذلك مكتوب في زبور داود، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾"الأنبياء:105" وهم محمد وأمته اهـ.

جاء وفد ثقيف إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا له: لا ندخل في دينك، حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب لا نُعشَر، ولا نُحشَر، ولا نُجبِّي في صلاتنا"[1]، وكل ربا لنا فهو ثابت، وكل ربا علينا فهو موضوع "وأن تمتعنا باللات سنة، حتى نأخذ ما يُهدَى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وأن تُحرِّم وادينا كما حرَّمت مكة،

فإن قالت العرب: لم فعلت ذلك؟ فقل: إن الله أمرني، فسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وطمعوا في سكوته، فأنزل الله تعالى ﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ قاربوا ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ يستنزلونك ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ مما طلبوه منك ﴿وَإِذًا﴾ لو أجبتهم ﴿لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ بالعصمة ﴿لَقَدْ كِدْتَ﴾ قاربت ﴿تَرْكَنُ﴾ تميل ﴿إِلَيْهِمْ شَيْئًا﴾ ركوناً ﴿قَلِيلًا﴾"الإسراء:73-74" لشدة احتيالهم وإلحاحهم عليك، والآية تفيد أنه عليه الصلاة والسلام ما ركن ولا قارب، لتثبيته بالعصمة، فهو عليه الصلاة والسلام معصوم المصادر والموارد، مؤيد في الهمم والمقاصد ﴿إِذًا﴾ لو قاربت الركون ﴿لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ﴾ عذاب ﴿الْحَيَاةِ وَضِعْفَ﴾ عذاب ﴿الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾"الإسراء:75" يمنع العذاب عنك، لأنك صفوة الكلمة المختارين فمقاربة الركون -لو حصلت منك- تستوجب التشديد لعلو مقامك، وإن كانت هي في الواقع ليست بذنب، وهذا نهاية ما يطلب في تبرئة جنابه الشريف، من قصد المخالفة.

1- لا نعشر: لا ندفع العشر، يقصدون الزكاة، ولا نحشر: لا نذهب للجهاد، ولا نجبي- بضم النون وفتح الجيم وكسر الباء المشددة: لا نركع ولا نسجد في الصلاة، وواديهم الذي طلبوا تحريمه: وادي وج، ووج بفتح الواو وتشديد الجيم بلد بالطائف.

وقال تعالى مخاطباً لنبيه ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي من وقت زوالها ﴿ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ إقبال ظلمته بمغيب الشفق، وهذا يشمل الظهر والعصر والمغرب والعشاء ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ صلاة الصبح ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾"الإسراء:78" تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، ويؤخذ منه فضل صلاة الصبح، وأن الملائكة متعبدون بحضور الصلاة معنا، وهذا من خصائص هذه الأمة ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾"[1]" فريضة زائدة خاصة لك ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾"الإسراء:79" يحمدك فيه جميع المخلوقات، وهو مقام الشفاعة في فصل القضاء، وعسى من الله تفيد وجوب الوقوع، فالمقام المحمود ثابت لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم"[2]"، وهو مما خص به نبينا دون سائر الأنبياء.

ثم قال تعالى- يمتن على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن بأن نمحوه من الصدور والمصاحف ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا﴾ لكن أبقيناه ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ "الإسراء:86-87" بإنزال القرآن وحفظه من التبديل وإعطائك المقام المحمود وغير ذلك مما خصك به، ثم أمره أن يتحدى بالقرآن الإنس والجن، وهذا مما يدل على قدر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، حيث كانت معجزته تتحدى الثقلين، لأنه رسول إليهم، بخلاف سائر الأنبياء عليهم السلام، فإن معجزاتهم لا تتجاوز حدود قومهم. ثم قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا﴾ عظيماً"[3]" ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ أنزلناه مفرقاً في عدة سنين ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى

1- كان التهجد فرضاً عليه صلى الله عليه وآله وسلم ثم نسخ وبقي مطلوباً منه على سبيل الندب.

2- ونطقت به الأحاديث في الصحيحين وغيرهما، وهي كثيرة مستفيضة.

3- هذا الوصف مأخوذ من تنكير ﴿قُرْآنًا﴾ لأن التنكير يدل على التعظيم والتفخيم.

النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ على مهل وتأن ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾"الإسراء:106" آية بعد آية، حسب المقتضيات والأسباب ﴿قُلْ﴾ لكفار مكة ﴿آمِنُوا بِهِ﴾ بالقرآن ﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ به وهذا الأمر للتهديد ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ وهم مؤمنوا أهل الكتاب ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ بنزوله وبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ وفي هذا تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم، وتسجيل لبعثته ونزول كتابه في الكتب السابقة، وهو يؤكد ما قررناه في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾"آل عمران: 81" الآية.

(تنبيه) عبارة ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ حيثما أطلقت في القرآن، دلت على المدح. وكذلك عبارة ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ بخلاف ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فإنها تأتي للذم غالباً، وقد تأتي لمجرد التعريف، نحو ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾"المائدة:5" أما عبارة (أهل الكتاب) فيأتي للمدح تارة وللذم أخرى.

14- سورة الكهف

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾"الكهف: 1" اللام بمعنى في، أي لم يجعل فيه ﴿عِوَجًا﴾ أي اختلافاً، لقوله في الآية الأخرى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾"النساء: 82" وفي الحمد على إنزال القرآن، دليل على أنه نعمة عظيمة، ودليل على أنه أعلى الكتب السماوية وأجلها، وفي هذا تنويه بقدر نبينا كما لا يخفى.

15- سورة مريم

في هذه السورة آية تدل على عظم قدر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم"[1]"، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾"مريم: 64" فإن هذه الآية أنزلها الله تعالى، يحكى اعتذار جبريل عليه السلام، للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، حين قال له –معاتباً- (ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا) حسبما جاء في البخاري عن ابن عباس، وفي هذا بيان عظم قدر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه:

1- عتابه لجبريل. 2- اعتذار جبريل له. 3- تسجيل الله لذلك في كتابه.

ولم يصل رسول غيره إلى هذه الرتبة السامية.

قوله تعالى ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾"مريم: 68" قال الزمخشري: في إقسام الله تعالى باسمه تقدست أسماؤه، مضافاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تفخيم لشأن رسول الله ورفع منه.

19- سورة طه

قوله تعالى يخاطب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾"طه: 2" لتتعب بما فعلت بعد نزوله، من طول قيامك به في صلاة الليل، بل خفف عن نفسك ولهذا كان عليه الصلاة والسلام ينام بعض الليل، ويقوم بعضه.

1- تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾"مريم: 2"، في سورة النساء، وحاصلة: أن الحق سبحانه أضاف اسمه إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأضاف زكريا إليه، ليعلم العباد فرق ما بين المنزلتين، وتفاوت ما بين الرتبتين.

وقيل: معنى لتشقى، لتتعب بتأسفك على كُفر من كَفر، فأرح نفسك من هذا التعب، وإنما عليك البلاغ، فالآية على هذين الاحتمالين تفيد أمره عليه الصلاة والسلام بالتخفيف عن نفسه، ولم يطلب الله من نبي قبله، أن يخفف عن نفسه. وقيل: إن الكفار لما رأوا كثرة عبادته صلى الله عليه وآله وسلم، وكثرة تلاوته القرآن، قالوا له إنك لتشقى بترك ديننا، وإن القرآن نزل عليك لتشقى به، فرد الله ما قالوا، وهذا أيضاً يدل على عناية الله بنبيه عليه الصلاة والسلام.

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حين ينزل عليه القرآن، يتعجل قراءته قبل انتهاء وحيه، فأنزل الله تعالى يأمره بالانتظار ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1]"طه: 114" بالقرآن، وبمنزلته تعالى، وبالضرورة دعا وأجيب، فهو أعلم الناس بالله وبكتابه وفي الصحيحين حديث (إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية) وقال تعالى يخاطب نبيه- ﴿وَسَبِّحْ﴾ صل متلبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إذ الصلاة مشتملة التسبيح والتحميد ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاة الصبح ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة العصر ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ ساعاته ﴿فَسَبِّحْ﴾ صل المغرب والعشاء ﴿وَ﴾ صل الظهر ﴿أَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ عند زوال الشمس، لأنه طرف النصف الأول، وطرف النصف الثاني، والمراد بالجمع ما فوق الواحد ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾"طه: 130" بما تعطي من الهبات والعطايا، قال الصاوي: انظر إلى هذا الخطاب اللطيف المشعر بأنه

1- تفيد هذه الآية أمر الله تعالى نبيه باستزادة العلم منه مباشرة، بخلاف موسى عليه السلام فإن الله تعالى أحاله على الخضر، فذهب يطلبه في جنبات الأرض حتى إذا وجده قال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾"الكهف: 66"؟ فانظر فرق ما بين المقامين!.

صلى الله عليه وآله وسلم حبيب رب العالمين، وأفضل الخلق أجمعين، حيث قال له ربه ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ ولم يقل: لعلي أرضى عليك ونحو ذلك.

ومن هنا قوله عليه الصلاة والسلام (وجعلت قرة عيني في الصلاة)"رواه أحمد" وقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "ما أرى ربك إلا يسارع في هواك""رواه أحمد والبخاري"، فصلاته صلى الله عليه وآله وسلم مأمور بها ليرضى هو، لا ليكفر الله عنه سيئاته، ولا ليرضى عليه، وحينئذ فلا كلفة عليه فيها، لأن فيها شهوده لربه الذي هو قرة عينه"[1].

17- سورة الأنبياء

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ أي فرق من العرب، وهم خُزاعة وهُذَيل وجُهينَة وبنو سلمة ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ من الملائكة، فكانوا يعتقدون أنهم بنات الله تعالى ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له عن ذلك ﴿بَلْ﴾ هم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ عنده، والعبودية تنافي البنوة، ولا تجتمع معها، ولهذا لو وجد رجل ابنه رقيقاً، واشتراه عُتِق عليه بمجرد الشراء ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ لا يأتون بقولهم إلا بعد قوله ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ لا يخالفون

1- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾"طه:133" قال الزمخشري: اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوة، فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هي أم الآيات؟ وأعظمها في باب الإعجاز؟ يعني القرآن، من قبل أن القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ودليل صحته؛ لأنه معجزة وتلك ليست بمعجزات، فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة ا.هـ، ففي الآية -كما قال البيضاوي- إشعار بأن القرآن كما يدل على نبوته، برهان لما تقدمه من الكتب من حيث إنه معجز وتلك ليست كذلك، بل هي مفتقرة إلى ما يشهد على صحتها، وهذا مما خص به نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، حيث كانت معجزته دليلاً على صحة ما في كتب الأنبياء قبله.

أمره، ولو كانوا ولداً له تعالى، لأمكن أن يسبقوه بالقول، وأن يخالفوا أمره، إدلالاً ببنوتهم حسب المعتاد من إدلال الولد على والده ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما هم عاملون وما عملوه ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ من المؤمنين، فلا يشفعون إلا لمن علموا أن الله يقبل شفاعتهم فيه ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ وجلون ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ من الملائكة ﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ﴾ كما نجزي القائل ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾"الأنبياء: 26-29" المشركين، في هذه الآية إنذار إلى الملائكة، وفي الآية الأخرى ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾"الأنعام: 19" فيؤخذ منهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرسل إلى الملائكة، ذكر هذا الاستنباط، الحافظ السيوطي في (الأرائك في إرسال النبي إلى الملائك) وهو استنباط وجيه، يؤيده ما تقدم من قتال الملائكة معه في غزوة بدر، وما سبق في سورة الإسراء من تعبدهم بحضور الصلاة معنا، وما ثبت في الصحيح أنهم يحضرون خطبة الجمعة، ويحضرون معنا صلاة الجماعة، وأن الإمام إذا قال ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾"الفاتحة: 7" قالوا: آمين، فمن وافق تأمينه تأمينهم، غفر له، وصح"[1] أن جبريل سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما تعدون من شهد بدراً فيكم؟ قالوا: خيارنا، قال: كذلك هم عندنا خيارنا من الملائكة"رواه أحمد" إلى غير ذلك مما يدل على أنهم متعبدون بما

1- في صحيح البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: (من أفضل المسلمين) أو كلمة نحوها، قال: (وكذلك من شهد بدراً من الملائكة) ففيهم من حضر بدراً وأحداً والخندق كما أن الصحابة كذلك.

يناسبهم من شريعتنا، وهذا من خصائص نبينا صلى الله عليه وآله وسلم"[1].

وقال سبحانه ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ الكتاب، وهو يعم الكتب كلها يعني المنزلة ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ وهو اللوح المحفوظ، والمعنى: أن الله يقسم باسمه الأقدس على أنه كتب في اللوح المحفوظ والكتب التي أنزلها ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾"الأنبياء: 105" من المؤمنين، قال تعالى في أهل الجنة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾"الزمر: 74" ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾"مريم: 63" ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]"الأعراف: 43" ومن بدع التفاسير أن بعض مؤيدي

1- وحكي الرازي الاجماع على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يرسل إلى الملائكة، وفي هذا الاجماع نظر، فلم يحكه أحد قبله من ناقلي الاجماعات كابن المنذر وابن عبد البر وابن حزم ولعله حكاه بناء على ما قام بذهن كثير من العلماء: إن الملائكة معصومون وأنهم مفطورون على التسبيح والتحميد، فلا يتوجه عليهم تكليف، وهذا خطأ بل يتوجه عليهم التكلف لقوله تعالى في شأنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾"التحريم: 6"، ولما ذكرناه في الأصل، ولأنهم متعبدون بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعبادات كثيرة يطول تتبعها، وممن قال بإرسال نبيه إليهم: التقي السبكي والمازرى والسيوطي، وبعض متأخري الأشعرية أراد أن يتوسط بين هذين القولين فقال: أنه صلى الله عليه وآله وسلم مرسل إليهم إرسال تشريف لا تكليف، وهذا لا معنى له ولا طائل تحته.

2- تقدم في سورة الإسراء تفسير الزمخشري لهذه الآية بأن المراد بها محمد وأمته، والمعنى: أن الله يورث المسلمين أرض الكفار بعد هزيمتهم، فقد فتح عليهم بلاد الشام وفارس والهند والعراق ومصر وسائر بلاد شمال إفريقيا وغير ذلك من البلاد والأصقاع، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أرض الكفر ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾"الرعد: 41" بما نفتح على المسلمين من بلادهم، فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام، وذلك من آيات النصرة والغلبة، وقد يسر الله للمسلمين الأولين من

الاستعمار من المعاصرين، حمل الأرض على الدنيا، وفسر الآية على معنى: أن الأرض أي الدنيا يرثها العباد الصالحون لعمارتها، وهم المستعمرون وهذا إلحاد في القرآن، وكذب على الله، وخروج على دينه؟ وإبطال لفريضة الجهاد، ونحن نبرأ إلى الله من هذا التفسير ومن صاحبه، ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ القرآن ﴿لَبَلَاغًا﴾ كفاية في وراثة أرض الجنة ﴿لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ عاملين به ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً﴾ أي للرحمة، أو إلا حال كونك رحمة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾"الأنبياء: 106-107" الملائكة والإنس والجن، أما الملائكة فإن الله مدحهم في كتابه الذي جعل معجزته، وأما الثقلان فإن المؤمنين منهم سعدوا باتباعه، وفازوا بالنعيم الدائم يوم القيامة، والكفار منهم رفع عنهم الخسف والمسخ والقذف وأنواع العذاب التي عذب بها من قبلهم، هذا إلى يسر دينه، وسماحة تعاليمه، وكرم معاملته، وسعة عفوه، ولم يكن هذا لنبي ولا رسول سواه.

18- سورة الحج

قال الله تعالى يخاطب هذه الأمة ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ اختاركم لدينه، وجعلكم أمة وسطاً كما سبق ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ضيق، بل جعله سهلاً سمحاً، كما قال عليه الصلاة والسلام (بعثت بالحنيفية السمحة)"رواه أحمد" ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ عليه السلام، وملة منصوب بنزع الخافض، أي كمِلَّة إبراهيم، والمراد تشبيه ديننا بدين إبراهيم في التوحيد والسهولة ﴿هُوَ﴾ أي الله ﴿سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا الكتاب في الكتب القديمة ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ القرآن،

فتوح البلدان ودخولها تحت لواء الإسلام؟ ما عُد معجزة في تاريخ البشر منذ أوجده الله على ظهر الكرة الأرضية.

حيث قال ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾"المائدة: 3" ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة أنه بلغكم ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾"الحج: 78" أن رسلهم بلغوهم، وفي هذه الآية من فضائله عليه الصلاة والسلام: سهولة دينه، واختيار أمته على سائر الأمم، وشهادتها للرسل يوم القيامة أنهم بلغوا قومهم، وشهادته عليها بأنه بلغها، وهو عليه الصلاة والسلام لا يحتاج إلى من يشهد له.

19- سورة المؤمنون

قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أفلم يدبر كفار قريش القرآن الدال على صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ الاستفهام للتقرير بالحق الذي هو صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومجيء الرسل للأمم الماضية المعبر عنهم بآبائهم الأولين، ومعرفة رسولهم بالصدق والأمانة، وأنه مبرأ من الجنون. ومعنى الاستفهام التقريري: أقروا بالحق المذكور ولا تنكروه، وفي الآية دفاع الله عن نبيه بهذا الأسلوب الذي يدل على أنهم في إنكارهم على النبي، وتكذيبهم له، يخالفون ما يعلمون عنه من الصدق والأمانة ورجحان العقل ولهذا أضافه إليهم، للدلالة على أنهم عرفوه وعاشروه، فكيف ينكرونه بعد ذلك؟!! ﴿بَلْ﴾ للانتقال من الاستفهام التقريري، إلى الرد الصريح ﴿جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ القرآن ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ "المؤمنون: 68-70" ولهذا كرهوا الآتي به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

20- سورة النور

خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى غزوة بني المصطلق، وأخذ معه عائشة رضي الله عنها تحمل في هودج يسترها، وذلك بعد فرض الحجاب، وفي رجوعهم من الغزو، تأخرت لقضاء حاجتها، والبحث عن عقد وقع منها وسار الجيش، وحملوا هودجها يحسبونها فيه، وهي خارجه ووجدت عقدها، ورجعت إلى هودجها فلم تجده، ونامت في ذلك المكان، وهي تؤمل أن يفتقدوها، فيرجعوا إليها فجاء صفوان بن المعطل رضي الله عنه –وكان يتأخر بعد الجيش، يتفقد ما يسقط منهم، ليحمله إليهم- فوجدها نائمة، وكان يعرفها لأنه رآها قبل الحجاب، فاسترجع حتى استيقظت، فأناخ الناقة، وأدار ظهره حتى ركبت، ولحقا بالجيش، فاتهمها عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق وتناقل كلامه بعض الصحابة، غفلة منهم عن خبيئة نفسه. واهتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه التهمة، لأنها تمس زوجه فأنزل الله في براءتها بضع عشرة آية، افتتحها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾"النور: 11" واختتمها بقوله سبحانه ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾"النور: 26" وفي هذه الحادثة دلالة على شدة عناية الله بنبيه، من وجوه:

(الأول) أن الله برأ زوجه بقرآن يتلى، ولم يكتف بأن يبرئها برؤيا منامية، وإن كانت رؤيا الأنبياء وحياً يثبت به الشرع.

(الثاني) أنه سمى قذفها إفكاً، والإفك أقبح الكذب.

(الثالث) أنه تعالى توعد البادئ به –وهو عبدالله بن أبي بن سلول- بعذاب عظيم، وأوقع على الخائضين فيه إثم خوضهم وترويجهم له.

(الرابع) أنه تعالى وبخ الخائضين فيه، وزجرهم بعدة زواجر وموبخات، وهي قوله سبحانه: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ.. لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ.. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ.. إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ.. وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ.. يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ.. إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ.. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ –إلى- وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

(الخامس) أخبر عن الخائضين فيه أنهم كاذبون عنده تعالى ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾"النور: 13" وهذا يفيد القطع بكذبهم هنا، بخلاف قذف أي محصنة مسلمة، فإن القاذف لها –إذا لم يأت بالشهداء- يكون كاذباً بحسب الظاهر، ولا يقطع بكذبه، لجواز أن يكون صادقاً ولم يستطع إحضار الشهود.

(السادس) أنه تعالى أوجب اللعنة والعذاب على قاذف إحدى أمهات المؤمنين، حيث قال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾"النور: 23" هن أمهات المؤمنين ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ –إلى- وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾"النور: 23-25".

(السابع) نقل القرطبي عن بعض أهل التحقيق، قال: لما رُمي يوسف عليه السلام بالفاحشة برَّأه الله على لسان صبي في المهد، ولما رُميت مريم بالفحشاء برأها الله على لسان ولدها عيسى عليهما السلام، ولما رُميت عائشة بالفحشاء برأها الله بالقول فما رضي لها براءة صبي ولا نبي، حتى برَّأها الله بكلامه من القذف والبهتان، قلت: لما كانت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، برَّأها الله بهذه الطريقة،

إظهاراً لشدة عنايته بنبيه، فالموازنة المذكورة هي في الحقيقة موازنة بين يوسف وعيسى وبين نبينا عليهم الصلاة والسلام، وفضل نبينا عليهما ظاهر.

وقال الزمخشري في الكشاف: ولو فَلَيتَ القرآن كله، وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى غلَّظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة، وأساليب مفتنة، كل واحد منها كاف في بابه، إلى أن قال: ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة، برأ يوسف بلسان الشاهد، وشهد شاهد من أهلها، وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه"1"، وبرأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حِجْرها: إني عبد الله، وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر، مثل هذه التبرئة، بهذه المبالغات، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك، وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم، وخيرة الأولين والآخرين، وحجة الله على العالمين، ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه

1- كان اليهود يغتسلون عراة، وكان موسى عليه السلام حيياً ستيراً، إذا أراد الاغتسال انفرد في مكان بعيد عنهم حتى لا يروا عورته، فقالوا: لا ينفرد عنا إلا لأنه آدر- أي خصيتاه منتفختان أو إحداهما- وأراد الله أن يبرئه من هذا العيب الذي ألصقوه به، فذهب يغتسل مرة منفرداً على عادته، ونزع ثيابه ووضعها على حجر، ونزل إلى الماء يستحم، فلما اغتسل وأراد أن يلبس ثوبه، جرى الحجر وجرى موسى عارياً خلفه يناديه: ثوبي حجر، ثوبي يا حجر، حتى مر على جماعة من بني إسرائيل فرأوه عارياً ليس به داء، وعلموا أنهم اتهموه كذباً، فوقف الحجر وأخذ ثوبه وضربه بعصاه حتى أثر فيه ندباً من ضربه كذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

صلى الله عليه وآله وسلم، وتقَدُّم قَدمِه، وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق، فليتلق ذلك من آيات الإفك، وليتأمل كيف غضب الله له في حرمته؟! وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه؟!. اهـ.

(تنبيه) اتخذ المستشرقون والمبشرون من حادثة الإفك، مغمزاً يعيبون به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعن طريق اتهام زوجه، وثلم عرضها وهم في هذا مغرضون حاقدون وقد أجاد الرد عليهم الأستاذ العقاد في كتابه (الصديقة بنت الصديق) فليراجع، ومما قرأته في بعض الكتب القديمة أن أحد كبار القسيسين ناظر بعض كبار علماء المسلمين في مسائل دينية، وتدرج الكلام إلى حديث الإفك، فاتخذه القسيس تكأة للطعن في النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له ذلك العالم -وأظنه الباقلاني- على فرض صحة التهمة، فعائشة زوجة، يمكن التخلص منها بالطلاق ولكن ما قولك فيمن أتت قومها تحمل طفلها بين يديها؟!!! فانقطع القسيس ولم يحر جواباً.

وقال تعالى -في المنافقين الذين ينفرون من التحاكم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم- ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي المنافقون ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ هما فيما حكما به ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾ يعرض ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ عن حكم الرسول ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ﴾ المعرضون ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة، إذ لو كان إيمانهم حقيقياً، ما أعرضوا عن حكمه ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن المجيء إليه إن كان عليهم الحق ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ طائعين ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ في نبوته ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ في الحكم، وبالضرورة لا محل لخوفهم، لاستحالة الجور في حق الله ورسوله ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ

هُمُ الظَّالِمُونَ﴾"النور: 47-50" بالإعراض عن الحكم وفي الآية دليل على أنه عليه الصلاة والسلام لا يخطئ في الحكم لأن الله تعالى جعل حكم نبيه حكمه، والخطأ في حقه تعالى محال، فما زعمه بعض مبتدعة هذا العصر من نسبة الخطأ إليه عليه الصلاة والسلام في بعض أحكامه، ضلال مبني على جهل، وزاد بعضهم جهلاً وضلالة، فجوز مخالفة بعض قضاياه صلى الله عليه وآله وسلم، إذا اقتضت المصلحة ذلك ولا أدري كيف خفيت عليه هذه الآية؟ وآية سورة النساء؟! وأي مصلحة تقتضي مخالفة حكمه؟ والقرآن ينفي الإيمان عمن لم يسلم له تسليما؟! ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أفرد الضمير لإفادة أن حكم الله ورسوله واحد ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ لا أن يردوه لمصلحة أو غيرها ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾"النور: 51" الفائزون، ثم حض الله على طاعته وطاعة رسوله وأمر بها وأخبر أن الهداية في طاعة رسوله وهذا يؤكد ما قدمناه أن الله يقرن ذكر رسوله بذكره، تشريفاً له وتكريماً، وأنه تعالى يتولى توجيه الأمر بطاعته، كما تولى الدفاع عنه.

أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحفر الخندق، استعداداً لمقابلة المشركين الذين عزموا على غزوه بالمدينة. فكان المنافقون يتباطئون في العمل. وإذا وجدوا فرصة انصرفوا لبيوتهم من غير استئذان، بخلاف الصحابة الذين كانوا يعملون مجتهدين، ولا ينصرف أحدهم إلا لعذر، بعد استئذان، ويعود عند انتهائه. فأنزل الله بمدحهم، ويذم المنافقين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ مع الرسول ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ كحفر الخندق أو خطبة الجمعة ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا﴾ لعذر طرأ لهم ﴿حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ في الانصراف للعذر ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَرَسُولِهِ﴾ في هذا غاية المدح للصحابة، ونهاية الذم للمنافقين ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فوض إليه الأمر، وهذا دليل مسألة التفويض المذكورة في مبحث الاجتهاد من علم الأصول ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ ليعوضهم استغفارك ما فاتهم من شرف مجالستك ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾"النور: 62"

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية: أراد عز وجل أن يريهم عظم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغير إذنه ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله، وجعلهما كالتسبيب له، والبساط لذكره، وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين، ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً حيث أعاده على أسلوب آخر، وهو قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وضمنه شيئاً آخر وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين وعرض بحال المنافقين وتسللهم لواذاً، ومعنى قوله ﴿حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم، ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم، بمشيئته وإذنه لمن استصوب أن يأذن له.

كان بعض المسلمين ينادي النبي صلى الله عليه وآله وسلم باسمه المجرد، أو كنيته: يا محمد أو يا أبا القاسم فنهاهم الله عن ذلك بقوله تعالى ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾"النور: 63" كما يقول بعضكم لبعض: يا فلان، ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، ونحوهما من الألفاظ المشعرة بالتعظيم، ومنها: لفظ سيدي كما كان يناديه بعض أجلاء الصحابة، حسبما ثبت في سنن أبي داود، وصححه الحاكم، فالوهابية الذين يتشبثون بذكره باسمه المجرد،

خالفوا القرآن الكريم، وجانبوا الذوق السليم، وأبانوا عن قلة أدب في حق الرسول العظيم، الذي خصه الله بهذه الخصوصية، دون سائر الأنبياء الذين حكى الله عنهم دعاء قومهم لهم باسمهم المجرد نحو ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾"البقرة: 61" ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾"المائدة: 112" وقالت بلقيس ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾"النمل: 44" ثم عاد الكلام إلى ذم المنافقين ﴿قَدْ﴾ للتحقيق ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ يخرجون مستترين أثناء خطبة الجمعة ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي الرسول ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾"النور: 63" يؤخذ منه أن الأمر للوجوب، وعلى أن أمر الرسول واجب الاتباع.

وقال الزمخشري: إذا احتاج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم، فلا تفرقوا عنه إلى بإذنه، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي، أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمّي بعضكم بعضاً ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه، ولا تقولوا يا محمد، ولكن قولوا يا نبي الله، ويارسول الله، مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض والتواضع، قلت: الآية تشمل المعنيين جميعاً، لأن الفعل واقع في سياق النهي، فيعم.

21- سورة الفرقان

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾"الفرقان: 1" يفيد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرسل إلى الإنس والجن والملائكة، لأن لفظ العالمين يشملهم، ولأنه سبق في سورة الأنبياء توجيه الإنذار لهم، ومن حمل من

المفسرين لفظ العالمين على الثقلين، محتجاً بأن الملائكة معصومون، فقد وهِمَ؛ لأن العصمة لا تنافي التكليف، ولا تمنع توجيه الإنذار بصيغة الشرط، كما تقدم في سورة الأنبياء وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾"الزمر: 65" مع أن الأنبياء معصومون أيضاً، والحكمة في ذلك تعبدهم بما يزيد في درجات قربهم، والتنبيه على أنهم —مع عصمتهم وعلو رتبتهم- لو فرض وقوع مخالفة منهم، عذبوا، فكيف بمن هو دونهم؟.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾"الفرقان: 4" الآيات تتضمن تهماً وشبهاً، مع جواب الله عنها بما يبين بطلانها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾"الفرقان: 33" يؤيد ما بيناه في سورة البقرة أن الله تعالى تولى الدفاع عن نبيه فيما وجه إليه الكفار من تهم وشبه، قال العلامة الصاوي: معنى الآية كلما أوردوا شبهة أو أتوا بسؤال عجيب، أجبنا عنه بجواب حسن يرده ويدفعه من غير كلفة عليك فيه، فلو نزل القرآن جملة واحدة، لكان النبي هو الذي يبحث في القرآن عن رد تلك الشبهة، كالعالم الذي يبحث في الكتب عن جواب المسائل التي يسئل عنها، فيكون الأمر موكولاً له، فتكون الكلفة عليه، وما كان موكولاً إلى الله تعالى، كان أتم مما هو موكول إلى العبد، وفيه قمع للمعاندين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾"الفرقان: 51" يفيد أن الله لو أراد أن يبعث رسولاً في كل قرية، لفعل وتكون رسالة نبينا حينئذ خاصة بقومه،

كالأنبياء السابقين، ولكن جعل نبيه رسولاً إلى العالم كله، ليعظم أجره، ويعلو ذكره، ويرتفع قدره.

قال الزمخشري ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى و﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ نبيا ينذرها، وإنما قصرنا الأمر عليك، وعظمناك به، وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل، فقابل ذلك بالتشدد والتصبر ا هـ.

22- سورة الشعراء

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾"الشعراء: 3" خرج مخرج الإشفاق عليه صلى الله عليه وآله وسلم، والمعنى: أشفق على نفسك، ولا تقتلها غماً لأجل أن لم يؤمنوا.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾"الشعراء: 4" خرج مخرج التسلية له صلى الله عليه وآله وسلم عن عدم إيمانهم، وهذه عناية لم ينلها نبي قبله.

قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾"الشعراء: 129" الآيات، مدح للقرآن ومنزله والمنزل عليه، وبيان أن علماء بني إسرائيل يعلمون أنه حق، ويشهدون بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾"الشعراء: 210"، ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾"الشعراء: 211"، –إلى- ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾"الشعراء: 221" ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾"الشعراء: 222" الآية، رد لقول المشركين على سنة الله في رد ما يورد على نبيه، عناية خاصة به، لم ينلها رسول قبله.

23- سورة النمل

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾"النمل: 6"، رد لقول المشركين فيه وفي القرآن، ولذا ورد مؤكداً بإن واللام، وهو مع هذا تمهيد لما سيتلى عليه من قصص الأنبياء عليهم السلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾"النمل: 70" تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم عن مكر الكفار به، لأن الله تعالى تكفل بنصره عليهم.

24- سورة القصص

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾"القصص: 40" الآيات، نوع من دفاع الله عن نبيه، بإقامة الحجة على مكذبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

لما خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم مهاجراً إلى المدينة، ووصل إلى الجحفة، وعرف طريق مكة –لأنه كان يسير على غير الطريق المعتاد- اشتاق إلى بلده، فأنزل الله تعالى عليه يعده بالعودة إلى بلده ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾"القصص: 85" وهذا من دلائل عناية الله بنبيه"[1].

1- قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾، أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه، يعني أن الذي حملك صعوبة هذا التكليف لمثيبك عليها ثواباً لا يحيط به وصف، و ﴿لَرَادُّكَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾"القصص: 85" أي معاد، إلى معاد ليس لغيرك من البشر – قلت يعني المقام المحمود- وتنكير المعاد كذلك، وقيل: المراد به مكة، ووجهه: أنه يراد رده إليها يوم الفتح، ووجه تنكيره: أنها كانت في ذلك اليوم معاداً له شأن، ومرجعاً له اعتداد لغلبة رسول الله صلى الله

25- سورة العنكبوت

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾"العنكبوت: 48" الآيات، إقامة للحجة على اليهود الذين أنكروا نبوته صلى الله عليه وآله وسلم، وهو دفاع أيضاً.

26- سورة الأحزاب

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾"الأحزاب: 1" نداء له بوصف النبوة، وقد نبهنا على ذلك في سورة المائدة، ونقلنا كلام الزمخشري على هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾"الأحزاب: 6" يفيد وجوب تقديم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإيثاره، فيجب على المؤمن تقديم نفس النبي على نفسه، ويؤثر طاعته على حظ نفسه، قال حسان:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

وقال الزمخشري: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ في كل شيء من أمور الدين والدنيا ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ولهذا أطلق ولم يقيد، فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقه آثار لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وأن يبذلوها دونه، ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب، ودفاعه إذا

عليه وآله وسلم عليها وقهره لها، ولظهور عز الإسلام وأهله، وذل الشرك وخزيه، والسورة مكية، فكأن الله وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر به منها، ويعيده إليها ظاهراً ظافراً، وقيل: نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره، وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم، فنزل جبريل، فقال له: أتشتاق إلى مكة؟ قال: (نعم) فأوما إبراهيم إليه.

لقحت حرب، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم، ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وصرفهم عنه، لأن كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين، وما صرفهم عنه فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار ا هـ.

قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾"الأحزاب: 6" يفيد أن أزواجه الطاهرات، أمهات المؤمنين في وجوب تعظيمهن واحترامهن، وحرمة نكاحهن، كما يأتي التصريح به بعد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾"الأحزاب: 7" قال الزمخشري: فإن قلت: لم قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على نوح فمن بعده؟ قلت: هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذراريهم، فلما كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم أفضل هؤلاء المفضلين، قدم عليهم، لبيان أنه أفضلهم، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه. فإن قلت: فقد قدم نوح عليه السلام في الآية التي هي أخت هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾"الشورى: 13" ثم قدم على غيره؟ قلت: مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك، وذلك أن الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة، فكأنه قال: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم، وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء والمشاهير. ا هـ.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ يعني الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾"الفرقان: 9" الريح ريح الصبا والجنود الملائكة، وكان هذا في غزوة الخندق، حيث قلعت الريح خيام الكفار، وسفت التراب في وجوههم، وأطفأت نيرانهم، وكبرت الملائكة في جوانب معسكرهم، فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أما محمد فقد بدأكم بالسحر، فالنجاء النجاء، فانهزموا من غير قتال"[1].

طلب أمهات المؤمنين التوسيع عليهن في النفقة واللبس، فأنزل الله في ذلك﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾"الأحزاب: 28" فخيرهن بين الله ورسوله، وبين إجابة طلبهن في متعة الحياة الدنيا، وأخبر أن عقابهن مضاعف، وكذلك ثوابهن"[2] وأخبر

1- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، يعني أنه صلى الله عليه وآله وسلم قدوة حسنة يقتدي به المؤمنون في كل ما يصدر عنه من قول وعمل؛ لأنه لا ينطق ولا يعمل عن هوى، بل عن وحي ظاهر أو خفي، قال بعض الكبراء: وخصك بالهدى في كل أمر فلست تشاء إلا ما يشاء، ومما يقتدي به فيه ما كان سبب نزول الآية وهو المواساة بنفسه، والثبات في مواطن القتال، وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾"الأحزاب: 21" الآية بدل من ﴿لَكُمْ﴾ فهو بيان لمن ثبتت له الأسوة الحسنة: أي أن المقتدي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو المتصف بخوف الله واليوم الآخر، والذكر الكثير لله تعالى، ويؤخذ منه أن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شرف لا يناله إلا علية المؤمنين وخاصتهم.

2- قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾"الأحزاب: 31" مرة على طاعتها، ومرة على خدمتها للرسول في حياته وحبس نفسها عليه بعد انتقاله، وممن يؤتي أجره مرتين الكتابي إذا أسلم لإيمانه بكتابه وبالقرآن، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ، أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ "القصص: 52-54" وفي الحديث الصحيح (ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب، آمن بنبيه وآمن

أنهن لسن كأحد من النساء، ونداؤهن بيانساء النبي، يفيد أنهن نلن هذا التكريم، لأجله صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾"الأحزاب: 33" يفيد طهارة أهل بيت النبوة وهم، كما ثبت في الصحيح- علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام؛ لأن الله لما بين تكريم نسائه، بين تكريم أولاده وعصبته، فجمع له الفضل من جميع أطرافه، عليه الصلاة والسلام.

خطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من عبد الله بن جحش، أخته زينب، فوافق، لظنه أنه خطبها لنفسه. فلما علم هو وأخته أن الخطبة لزيد كرها ذلك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1]"الأحزاب: 36" فقال عبد الله وأخته رضينا بأمر الله ورسوله.

بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران)"رواه البخاري".

1- قال ابن القيم في (زاد المعاد) تعليقاً على هذه الآية: فقطع سبحانه التخيير بعد أمره وأمر رسوله، فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره صلى الله عليه وآله وسلم بل إذا أمر، فأمره حتم، وإنما الخيرة في قول غيره إذا خفي أمره وكان ذلك لغير من أهل العلم به وبسنته، فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الإتباع لا واجب الإتباع، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه، بل غايته أنه يسوغ له اتباعه، ولو ترك الأخذ بقول غيره لم يكن عاصياً لله ورسوله، فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه ويحرم عليهم مخالفته، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله، فلا حكم لأحد معه، ولا قول لأحد معه، كما لا تشريع لأحد معه، وكل من سواه فإنما يجب اتباعه على قوله إذا أمر بما أمر به ونهى عما نهى عنه، فكان مبلغاً محضاً ومخبراً لا منشئاً ومؤسساً، فمن أنشأ أقوالاً وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله لم يجب على الأمة اتباعها ولا التحاكم إليها حتى تعرض على ما جاء به الرسول، فإن طابقته ووافقته وشهد لها

أفادت هذه الآية أن أمر النبي هو أمر الله، ولو كان خارج القرآن، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى أن يزوج زينب لزيد، وأمر أخاها بتنفيذ الزواج، فأخبر الله تعالى أن هذا أمره، وأتى بصيغة عامة تشمل جميع أوامره عليه الصلاة السلام، فالآية تصفع أولئك المبتدعة الذين يقصرون طاعة النبي على ما كان في القرآن، ومتعلقاً بالدين! وزواج زينب بزيد لم يأمر به القرآن، ولا علاقة له بالدين، فإن تمسكوا بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مسألة تأبير النخل (أنتم أعلم بأمر دنياكم)"رواه مسلم" فلا حجة لهم فيه، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يأمر بترك التأبير، وإنما قال (لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً)"رواه مسلم" فأبدى رأياً مجرداً، وليس كلامنا فيه، إنما كلامنا فيما أفادته الآية من وجوب اتباع أمره دينياً كان أو دنيوياً، مع تذييلها بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾"الأحزاب: 36".

كان الناس يدعون زيداً ابن محمد، لأنه عليه الصلاة والسلام كان قد تبناه قبل النبوة فأنزل الله في ذلك ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾"الأحزاب: 40" في هذه الآية -إلى جانب إبطال التبني- إثبات كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين، وهي مزية فضله الله بها على جميع المرسلين. ويلاحظ هنا أن الله حين ذكره باسمه محمد، أعقبه بوصف الرسالة، إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يذكر اسمه إلا مقروناً بما يدل على التعظيم.

بالصحة قبلت حينئذ، وإن خالفته وجب ردها واطراحها، فإن لم يتبين فيها أحد الأمرين جعلت موقوفة وكان أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها وتركه، وأما أنه يجب ويتعين فكلا ولما. ا.هـ. وهو في غاية الحسن ونهاية الإجادة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾"الأحزاب: 45-46" يفيد تسمية النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأسماء تدل على علو قدره، وارتفاع منزلته، ولم يسم بها نبي قبله، ويلاحظ أن الله سماه سراجاً منيراً، وسمى الشمس سراجاً وهاجاً، والمنير هو الذي ينير من غير إحراق، بخلاف الوهاج فإن فيه إحراقاً وتوهجاً.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ –إلى- وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾"الأحزاب: 50" يفيد أن الزواج بلفظ الهبة، ومن غير صداق، من خصوصياته عليه الصلاة والسلام، فلا يصح الزواج بلفظ الهبة لأحد من الناس، كائناً من كان.

قال الزمخشري: فإن قلت: لم عدل عن الخطاب إلى الغيبة، في قوله تعالى: ﴿نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ﴾ ثم رجع إلى الخطاب؟ قلت: للإيذان بأنه مما خص به وأوثر، ومجيئه على لفظ النبي للدلالة على أن الاختصاص تكرمة له لأجل النبوة، وتكريره تفخيم له، وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته. اهـ

قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾"الأحزاب: 51" يفيد تخييره صلى الله عليه وآله وسلم في القسم بين زوجاته، من غير وجوب عليه، وهذا من خصوصياته أيضاً.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ"[1]" وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾"الأحزاب: 53" يبين عدة أشياء، من حقوق النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أمته:

أحدها: أن أناساً كانوا يدخلون بيوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بغير دعوة منه، وينتظرون نضج الطعام، ليأكلوا معه، فحرم الله عليهم الدخول إلا بدعوة منه.

ثانيها: دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصحابة إلى وليمة أولمها على بعض أزواجه، ولما تناولوا الطعام مكث بعضهم يتجاذبون أطراف الحديث، فأوجب الله عليهم الخروج عقب تناول الطعام مباشرة.

ثالثها: كان منهم من يتناول الطعام مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبعض أزواجه، ففرض الله الحجاب على أمهات المؤمنين، صيانة لجناب نبيه الكريم، عليه الصلاة والسلام.

رابعها: قال بعض كبار الصحابة: لئن مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأتزوجن عائشة، فحرم الله تعالى نكاح أزواجه من بعده،قال الزمخشري: وسمى

1- نضجه.

نكاحهن بعده عظيماً عنده، وهو من أعلام تعظيم الله لرسوله، وإيجاب حرمته حياً وميتاً اهـ.

خامسها: أفادت الآية أن ما يؤذي النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يحرم فعله، ولو كان مباحاً في الأصل.

(تنبيه) قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ هذا أدبٌ أَدَّبَ به الثقلاء روى الثعلبي عن العلاء، قال: سمعت ابن عائشة يقول: حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم، وقال ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ قلت: ويناسب هذا ما ورد عن الشافعي أن سائلاً سأله: أيمرض الروح؟ قال: نعم، من ظل الثقلاء، وبعد مدة كبيرة، مر السائل عليه، فوجده جالساً بين ثقيلين فسأله: كيف الروح يا أبا عبد الله؟ فأجابه على الفور: في النزع!.

قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾"الأحزاب: 56" يفيد تشريف النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جهتين.

الأولى: قال الإمام سهل بن محمد بن سليمان: هذا التشريف الذي شرف الله به محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، بهذه الآية، أجمع وأتم من تشريف آدم عليه السلام، بسجود الملائكة له، لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة في ذلك التشريف، وقد أخبر الله تعالى عن نفسه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم عن الملائكة بالصلاة عليه، فتشريف يصدر عنه، أبلغ من تشريف تختص به الملائكة، من غير أن يكون الله تعالى معهم فيه.

والثانية: أن الله تعالى أمر عباده بالصلاة على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وجعلها قربة يتقرب بها إليه سبحانه، وهذا تشريف لم ينله رسول ولا ملك.

(تنبيه) قال الحافظ السخاوي في (القول البديع): الملائكة لا يحصي عددهم إلا الله تعالى؛ لأن منهم الملائكة المقربين، وحملة العرش، وسكان سبع سماوات، وخزنة الجنة والنار، والحفظة على الأعمال، وبني آدم، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾"الرعد: 11" والموكلين بالبحار والجبال والسحاب والأمطار والأرحام والنطف والتصوير ونفخ الأرواح في الأجساد وخلق النبات وتصريف الرياح وجري الأفلاك والنجوم وإبلاغ صلاتنا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكتابة الناس يوم الجمعة، والتأمين على قراءة المصلين، وقول ربنا ولك الحمد، والداعين لمنتظر الصلاة، واللاعنين لمن هجرت فراش زوجها، إلى غير ذلك مما وردت به الأحاديث الصحيحة وغيرها، وأكثر ذلك موجود في كتاب العظمة لأبي الشيخ ابن حبان الحافظ، وثبت في المستدرك للحاكم من حديث عبد الله بن عمرو (إن الله جزأ الخلق عشرة أجزاء فجعل الملائكة تسعة أجزاء وجزءاً سائر الخلق) وفي حديث المعراج المتفق على صحته (هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه)"رواه البخاري ومسلم" وفي حديث أبي ذر عند الترمذي وابن ماجه والبزار، مرفوعاً (أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك واضع جبهته ساجد) وفي حديث جابر عند الطبراني مرفوعاً –ونحوه من حديث عائشة عند الطبراني- (ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد) ومعلوم أن الجميع يصلون على سيدنا رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم، بنص القرآن. حيث كانوا، وأين كانوا، وهذا مما خصه الله به دون سائر الأنبياء والمرسلين، قلت: ودون الملائكة أيضاً.

27- سورة سبأ

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾"سبأ: 28" يفيد عموم رسالته صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تقدم هذا غير مرة، وهو من خصوصياته"[1]".

28- سورة فاطر

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾"فاطر: 4" قال الزمخشري: نعي به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله وتكذيبهم بها، وسلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن له أسوة حسنة في الأنبياء قبله، ثم جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمة ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقانه.

1- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ أرشدكم وأنصحكم بخصلة واحدة، وهي: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أي قيامكم ونهوضكم بهمة مخلصين لله تعالى معرضين عن المراء والتقليد ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ متفرقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً؛ لأن الازدحام يشوش الخاطر، ويبعد عن التفكير المتزن ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به، لتعلموا حقيقته وتعلموا ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي ما به من جنون يحمله على ادعاء الرسالة، بل علمتموه أرجح قريش عقلاً، وأرزنهم حلماً، وأثقبهم ذهناً، وآصلهم رأياً، وأصدقهم قولاً، وأنزههم نفساً، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به، فكان مظنة لأن تظنوا به الخير، وترجحوا فيه جانب الصدق، ويكفيكم أن تطالبوه بآية، فإذا أتى بها تبين أنه ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾"سبأ: 46"، وهذا من دفاع الله عن نبيه.

فإن قلت: ما معنى التنكير في رسل؟ قلت: معناه فقد كذبت رسل أي رسل ذوو عدد كثير، وأولو آيات ونذر، وأهل أعمار طوال، وأصحاب صبر وعزم، وما أشبه ذلك، وهذا أسلى له وأحث على المصابرة ا هـ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾"فاطر: 10" قال: أصله والذين مكروا المكرات السيئات، أو أصناف المكر السيئات، وعنى بهن مكرات قريش حين اجتمعوا في دار الندوة، وتداوروا الرأي في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إما إثباته أو قتله أو إخراجه، كما حكى الله سبحانه عنهم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾"الأنفال: 30" ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ "فاطر: 10" يعني ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور أي يكسد ويفسد دون مكر الله بهم، حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر، فجمع عليهم مكراتهم جميعاً، وحقق فيهم قوله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾"الأنفال: 30" وقوله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ "فاطر: 43" ا هـ. وعبر بأولئك إشارة لبعدهم عن الرحمة واشتهارهم بالبغي"[1].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾"فاطر: 32" الآية، يفيد اصطفاء الأمة المحمدية، وما ذاك إلا ببركة نبيها صلى الله عليه وآله وسلم.

1- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ القرآن، ومن للتبيين ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة؛ لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما تقدمه من الكتب ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾"فاطر: 31" يعني أنه خبرك وأبصر أحوالك فرآك أهلاً لأن يوحي إليك هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب، فالآية مدح للقرآن الكريم وللنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى قوله ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أنا أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من بعدك أي حكمنا بتوريثه، أو قال: أورثناه وهو يريد نورثه –لما عليه أخبار الله- ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة، لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله، وحمل الكتاب الذي هو أفضل كتب الله، ثم ذكر الوجه الثاني، وهو يرجع إلى هذا المعنى أيضاً.

(تنبيه) صدرت هذه الآية بذكر المصطفين من عباد الله، ثم قسمتهم إلى ظالم لنفسه مجرم، ومقتصد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وسابق غلبت حسناته على سيئاته ثم ختمت بجنات عدن يدخلونها جميعاً، فاستفيد منها أن عصاة المسلمين لا يخلدون في النار، وأن مآلهم الجنة.

29- سورة يس

قوله تعالى: ﴿يس، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾"يس: 1-3" الآية، رد على الكفار الذين أنكروا رسالته عليه الصلاة والسلام، ولهذا جاء مؤكداً بالقسم وإن واقترن خبرها باللام.

قال الزمخشري: فإن قلت: أي حاجة إلى قوله ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾"يس: 4" وقد علم أن المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم؟ قلت: الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة، فجمع بين الوصفين في نظام واحد، كأنه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت، وأيضاً فإن التنكير فيه دال على أنه أرسل من بين

الصرط المستقيمة على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه. ا.هـ فتنكير صراط أفاد تفخيمه وتعظيمه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾"يس: 69" رد لقول الكفار في النبي صلى الله عليه وآله وسلم: شاعر، ولقولهم في القرآن شعر وهذا يؤيد ما ذكرناه غير مرة أن الله تعالى تولى الدفاع عن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾"يس: 76" الآية. قال الزمخشري: المعنى: فلا يهمك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم، فإنا عالمون بما يسرون لك في عداوتهم وما يعلنون وإنا مجازوهم عليه، فحق لمثلك أن يتسلى بهذا الوعيد، ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهم ولا يرهقه الحزن ا هـ.

30- سورة الصافات

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي المشركين ﴿كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ "الصافات: 35" عن قولها وعن الاعتراف بما أفادته من التوحيد ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾"الصافات: 36" يعنون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ رد عليهم ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾"الصافات: 37" هذا مثل قوله تعالى ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾"فاطر: 31".

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾"الصافات: 174" وهو موعد نصرك عليهم وهو يوم بدر أو يوم الفتح ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ وما يحصل لهم من القتل والأسر في الدنيا، والعذاب في الآخرة ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾"الصافات: 175" ما يحصل لك من النصر والتأييد في الدنيا، والثواب الكبير في الآخرة، وأمره بالإبصار للدلالة

على أن ذلك قريب الوقوع، كأنه واقع أمامه، مشاهد له، وفي هذا تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم، وتنفيس عنه، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾"الصافات: 178-179" تسلية بعد تسلية، وتأكيد لوقوع الميعاد إلى تأكيد، وإطلاق لفعلي الإبصار بعد تقييد، للإشعار بأنه يبصر، وهم يبصرون ما لا يحيط به الوصف من أنواع المسرة والثواب، وصنوف المساءة والعذاب، وفي هذا دلالة على عناية الله بنبيه، حسبما نبهنا عليه غير مرة.

31- سورة الزمر

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾"الزمر: 1-2" الآية، يرد أيضاً على الكفار قولهم، في النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إنما يعلمه بشر.

32- سورة الشورى

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾"الشورى: 13" يفيد فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على هؤلاء الرسل الذين هم أولو العزم، وأصحاب الشرائع، من جهتين:

إحداهما: التعبير في جانبهم بوصى، إشارة لما قلناه في المقدمة: أن ما أوتيه النبيون لم يعد أن يكون وصايا تختص بقبيل من الناس.

ثانيتهما: التعبير في جانبه عليه الصلاة والسلام بأوحينا، تعظيماً لشأنه، كأنه المخصوص بالوحي، وإشارة إلى أن أولئك الأنبياء عليهم السلام، كانوا أوصياء في غيبته صلى الله عليه وآله وسلم: ولهذا يقول في الشفاعة لأهل الموقف يوم القيامة

(يا رب، أمتي أمتي)"رواه أحمد والبخاري ومسلم" فأمته من ضمهم المحشر، والأنبياء أوصياء عنه.

33- سورة الزخرف

قال الله تعالى: ﴿وَقِيلِهِ﴾ أي قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، قرئ بفتح اللام وكسرها وضمها، واختلف في توجيه ذلك على الإعراب، حكاها الزمخشري وضعفها، ثم قال: وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه، والرفع على قولهم: أيمن الله، وأمانة الله، ويمين الله، ولعمرك.

ويكون قوله ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ جواب القسم، كأنه قيل: وأقسم بقيله"[1]: يارب، أو وقيله: يارب، قسمي، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن دعوتهم، يائساً من إيمانهم، وودعهم وتاركهم ﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿سَلَامٌ﴾ أي تسلم منكم ومتاركة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾"الزخرف: 88-89" وعيد من الله لهم وتسلية لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم والضمير في: وقيله، لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإقسام الله بقيله، رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه. اهـ.

34- سورة الأحقاف

قوله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾"الأحقاف: 29" الآية، يفيد إرساله عليه الصلاة والسلام إلى الجن، وهذا من خصوصياته، وقولهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾"الأحقاف: 30" لا يدل على أن موسى أرسل إليهم، وإنما يدل على أنهم

1- وهذا يؤيد أن ﴿لَعَمْرُكَ﴾ في سورة الحجر إقسام بحياته صلى الله عليه وآله وسلم كما سبق بيانه، وعلى هذا يكون الله تعالى أقسم بحياة نبيه وبقيله.

آمنوا به، ومن آمن برسول واتبع شرعه قبل نسخه، كان ناجياً، وإن لم يكن ذلك الرسول مرسلاً إليه، أما أن يكون نبي أرسل إلى الجن، بحيث يجب عليهم الإيمان به، واتباع شريعته، فلم يكن هذا إلا لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم.

35- سورة القتال

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾"سورة محمد: 2" الآية، يفيد أن الإيمان والعمل الصالح، لا يقبلان إلا بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الزمخشري: وقوله ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بين ما يجب الإيمان به، تعظيماً لشأنه، وتعليماً لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به، وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وقيل: معناها: أن دين محمد هو الحق، إذ لا يرد عليه النسخ، وهو ناسخ لغيره. اهـ

قوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ أمر له بالتحدث بنعمة الله عليه بعصمته من الذنوب والتحدث يكون في صورة طلب واستغفار، كما يكون في صيغة خبر واستبشار، والحكمة في هذا أمر، تنبيه الأمة إلى الاستغفار، تأسياً بنبيها صلى الله عليه وآله وسلم، وعطف قوله ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾"محمد: 19" ليفيد تشريف الأمة باستغفار نبيها لها، مع الإشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام مأذون له بالشفاعة فيهم، لأن الاستغفار استشفاع.

36- سورة الفتح

نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مرجعه من الحديبية، فقال (لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس)"رواه البخاري" وقرأ فاتحتها، الحديث.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا، لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا، وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾"الفتح: 1-3" يفيد ما أنعم الله به على نبيه من الفتح الظاهر، والعصمة من الذنوب –إذ المغفرة كناية عنها"[1]- وإتمام النعمة، والهداية إلى الصراط المستقيم، والنصر الذي لا ذل معه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾"الفتح: 8" يفيد عموم أوصافه الأربعة وهي: الرسالة والشهادة والبشارة والنذارة، لأن حذف المتعلق يؤذن بالعموم. ويفيد أيضاً أن نصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيمه، واجبان كالإيمان به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾"الفتح: 8" يفيد أن متابعة رسول الله، متابعة لله، وطاعته طاعته، وأن كل ما يصدر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإذن الله ورضاه، وهذه منزلة لم ينلها رسول ولا ملك.

1- وجه ذلك: أن العصمة تحول بين الشخص وبين وقوع الذنب منه، والمغفرة تحول بين الشخص وبين وقوع العقاب عليه، فكنى عن الأولى بالثانية بجامع الحيلولة؛ لأن من لا يقع منه ذنب لا يقع عليه عقاب، واختيرت هذه الكناية – أعني الاستعارة- لأن المقام مقام امتنان، ثم المراد بعد هذا ليظهر أثر عصمتك فلا يبطرك الفتح والنصر.

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ "الفتح: 16" يؤيد ما قلناه آنفاً أن ما يصدر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويرضاه الله تعالى، ومن دلائل عناية الله بنبيه أنه تعالى ذكر الشجرة التي وقعت المبايعة تحتها، وهذا يفيد أن رضاه سبحانه وتعالى عم الأشخاص الذين بايعوا، ومكان مبايعتهم.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾"الفتح: 28" يفيد أن دين الإسلام الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، هو دين الحق وأن ما عداه من الأديان باطل، وأنه ظاهر على جميع الأديان بقوة حجته، وموافقة عقيدته للفطرة السليمة، وسماحة تعليمه، ومسايرتها لكل زمان ومكان، وتمشيها مع العقل السليم، والمنطق القويم، والله تعالى شهيد على ذلك، وكفى به شهيداً.

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾"الفتح: 29" إلى آخر السورة، يفيد تسجيل الله تعالى شهادته لمحمد بأنه رسوله، وتسجيل صفات أصحابه في التوراة والإنجيل، وفي هذا من علو منزلتهم ببركة صحبته صلى الله عليه وآله وسلم، ما لا يخفى.

(تنبيه) قال الصاوي: هذه السورة آخر القسم الأول من القرآن، وهو المطول، وقد ختم بسورتين، هما في الحقيقة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحاصلهما الفتح بالسيف، والنصر على من قاتله ظاهراً، كما ختم القسم الثاني –المفصل- بسورتين، هما نصرة له صلى الله عليه وآله وسلم بالحال، على من قصده بالضر باطناً. ا.هـ وهو استنباط جيد.

27- سورة الحجرات

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾"الحجرات: 1" نهى عن التقدم بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقول أو فعل، واعتبار التقدم بين يديه تقدماً بين يدي الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا لا يجوز لشخص أن يقدم رأياً من الآراء على حديث صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد وقع كثير من المقلدين في هذا المحظور، حيث قدموا آراء أئمتهم على ما صح من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي مخالفة صريحة لكلام الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾"الحجرات: 2" يفيد أمرين.

أحدهما: حرمة رفع الصوت فوق صوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا تكلم، ويدخل في هذا حديثه عليه الصلاة والسلام فلا يجوز رفع الصوت حين قراءة الحديث النبوي الشريف، ومن فعل ذلك يخشى عليه حبوط عمله.

ثانيهما: حرمة الجهر بالكلام حين مناجاته عليه الصلاة والسلام، بل يجب الكلام معه بأدب وخفض صوت، وقد أثنى الله على أبي بكر رضي الله عنه وعلى غيره ممن التزموا هذا الأدب الواجب، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾"الحجرات: 3" وعلى هذا يجب على زائر الروضة الشريفة أن يسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأدب وخفض صوت، مع إطراق وخشوع، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم حي في قبره الشريف، يرد السلام على من يسلم عليه، وكان عمر رضي الله عنه ينهى عن رفع

الصوت في المسجد النبوي؛ احتراماً له صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت عائشة رضي الله عنها إذا سمعت دقاً من البيوت المجاورة للمسجد، بعثت لسكانها: لا تؤذوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

تنبيهات:

الأول: قال الزمخشري: ليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر، ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر، والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه، غير مناسب لما يهاب به العظماء، ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه ورده إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير وقال أيضاً: كان أبو بكر رضي الله عنه إذا قدم على رسو الله صلى الله عليه وآله وسلم وفد أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون؟ ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: قال الزمخشري: هذه الآية -يعني إن الذين يغضون أصواتهم- بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسماً لإن المؤكد، وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً، والمبتدأ اسم الإشارة واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم، وإيراد الجزاء نكرة مبهماً أمره، ناظرة في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من خفض أصواتهم، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقدر شرف منزلته وفيها تعريض بعظم ما ارتكب الرافعون أصواتهم، واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء.

الثالث: أسند القاضي عياض في الشفا عن ابن حميد، قال: ناظر أمير المؤمنين أبو جعفر مالكاً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدب قوماً فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ومدح قوماً فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ الآية، وذم قوماً فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾"الحجرات: 4"، وأن حرمته ميتاً كحرمته حياً، فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله استقبل القبلة وأدعو؟ أم استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: ولما تصرف وجهك عنه؟ وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ ﴾"النساء: 46" الآية.

جاء وفد بني تميم وقت الظهيرة والنبي صلى الله عليه وآله وسلم قائل في منزله، فنادوه غير مراعين راحته، فذمهم الله تعالى بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾"الحجرات: 4-5" وهذا يفيد عناية الله بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وأن جهل أولئك الوفد بما يجب له من تعظيم واحترام، لم يعفهم من توجيه الذم إليهم، بل في تذييل الآية بجملة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعريض بأنهم آثمون فيما فعلوا، وتحريض لهم على التوبة منه.

قال الزمخشري: ورود الآية على هذا النمط فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإجلاله، منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفه والجهل، ومنها إيقاع لفظ الحجرات كناية عن خلوته مع

بعض نسائه، وتعريفها باللام دون الإضافة"[1]، ومنها أن شفع ذمهم باستركاك عقولهم، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات، تهويناً للخطب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتسلية له، وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم، وسوء أدبهم، وهلم جرا من أول السورة إلى آخر هذه الآية، فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب تقديم الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله، على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد، ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم، من رفع الصوت والجهر، كأن الأول بساط للثاني ووطاء لذكره، ثم ذكر ما هو ثناء على الذين غضوا أصواتهم، دلالة على عظيم موقعه عند الله، ثم جئ على عقب ذلك بما هو أطم، وهجنته أتم من الصياح برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حال خلوته ببعض حرماته، من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس، لينبه على فظاعة ما جسروا عليه، لأن من رفع قدره عن أن يجهر له بالقول –خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخي السرار- كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً، ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب، وتقتبس محاسن الآداب"[2]ا.هـ.

1- أي لم يقل حجرات أزواجك صوناً لهن أن يذكرن في هذا المواطن.

2- قال أيضاً: فإن قلت: هل من فرق بين ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ﴾"الحجرات: 5" وإلى أن تخرج؟ قلت: إن حتى مختصة بالغاية الضرورية، تقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولو قلت: حتى نصفها أو صدرها لم يجز، وإلى: عامة في كل غاية، فقد أفادت حتى بوضعها أن خروج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليهم غاية قد ضربت لصبرهم، فما كان لهم أن يقطعوا أمر دون الانتهاء إليه، فإن قلت: فأي فائدة في قوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ قلت: فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أن خروجه إليهم ا.هـ. قلت: هاتان نكتتان بديعتان تفيدان غاية الأدب مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

38 سورة النجم

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾"النجم: 1-2" يفيد نفي الضلال عنه صلى الله عليه وآله وسلم، مع تأكيد النفي بالقسم، والتعبير بصاحبكم يفيد أن كفار مكة، في اتهامهم إياه بالضلال والغي، مكابرون، لأنهم يعرفونه منذ نشأته بينهم بالأمانة والصدق ورجاحة العقل والخلق القويم، هذا وفي القسم بالنجم، إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام يهتدى به، كما يهتدى بالنجم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾"النجم: 3"، زعم بعض المبتدعة أنه خاص بنفي الهوى في النطق بالقرآن وأن تعميمه في جميع ما يلفظ به عليه الصلاة والسلام، مما ألقاه الشيطان على أفواه الناس!! وما درى المسكين أن الشيطان هو الذي أوحى إليه بهذه الكلمة التي دلت على جهله بعلم الأصول، وقواعد اللسان العربي، فإن من المعلوم للمتدرجين في هذين العلمين أن الفعل إذا وقع في سياق النفي أو الشرط"1" دل

1- عموم النكرة في سياق النفي لا خلاف فيه، وأما في سياق الشرط فاختلف فيه أهل الأصول، وممن قال بالعموم إمام الحرمين، حتى إنه استدرك على الأصوليين والفقهاء إطلاق قولهم: النكرة في سياق الإثبات تخص، وقال: إن الشرط يعم، والنكرة في سياقه تعم، واستدل له ابن المنير بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾"الزخرف: 36-37" الآية، قال: وفي هذه الآية للإمام ومن قال بقوله كفاية، وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكراً في سياق شرط، ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين لا واحداً لوجهين: أحدهما: أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطاناً، فكيف بالعاشي عن ذكر الله؟، والآخر: أنه أعاد عليه الضمير مجموعاً في قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ فإنه عائد إلى الشيطان قولاً واحداً ولو لا إفادته عموم الشمول لما جاز عود ضمير الجمع عليه بلا إشكال، قلت: ويدل لهم أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾"الحجرات: 6" الآية، فاسق ونبأ ذكرا منكرين في سياق شرط، والمراد بهما العموم بلا خلاف.

على العموم وضعاً بلا نزاع، والمفسرون حين عمموا الآية في جميع ما ينطق به عليه الصلاة والسلام من قرآن وسنة، إنما قالوا بما يدل عليه اللفظ العربي دلالة وضعية لغوية، وبما يقتضيه السياق أيضاً، لأن الكلام مسوق لتبرئته عليه الصلاة والسلام مما رماه به المشركون من الضلال والغي والهوى، فوجب أن يكون النفي عاماً في الهوى، كما كان عاماً في الضلال والغي، ولأنه لو قصر النفي في الهوى عن القرآن، كان ذلك تسليماً بأنه عليه الصلاة والسلام ينطق عن الهوى في السنة!!! وهل يليق بمسلم أن يحمل الآية على هذا المعنى الذي لا يدل عليه اللفظ، ولا يقتضيه السياق؟ ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما ينطق به ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾"النجم: 4" غير أن القرآن وحي متلو، والسنة وحي غير متلو.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾"النجم: 5-6" الآية يفيد أمرين:

أحدهما: تزكية علمه عليه الصلاة والسلام، بأنه تلقاه بواسطة ملك قوي ذي عزم، وهو جبريل عليه السلام.

ثانيهما: رؤيته لجبريل على صورته الأصلية، ودنو جبريل منه، حتى كان قاب قوسين أو أدنى، ولم يحصل هذا لنبي قبله، بل كان الأنبياء يرونه في صورة إنسان ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ فؤاد النبي عليه الصلاة والسلام أي ما أنكر ﴿مَا رَأَىٰ﴾"النجم: 11" ببصره من صورة جبريل الحقيقية: والآية –كما ترى- تتعلق برؤية جبريل التي حصلت بمكة، قبل الإسراء، وتؤكد الآية موافقة القلب للبصر فيها، ولكن مبتدعاً جاهلاً قحم في التفسير، فهم أن الآية تتعلق بالإسراء وأخذ منها دليلاً قاطعاً على أن المعراج لم يكن يقظة بالجسد والروح!!! ففضح جهله، وغفل عن قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾"النجم: 12" فإنه يقضي على استنباطه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ، عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ، عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ "النجم: 13-15" الآية يفيد أمرين:

أحدهما: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى جبريل عليه السلام، بصورته الحقيقية مرة أخرى.

ثانيهما: أن الرؤية الآخرة حصلت عند سدرة المنتهى، ففي الآية إشارة إلى المعراج الذي تحدث عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأحاديث المتواترة، وفي الآية تأكيد لهذه الإشارة من وجوه.

1- القسم الذي تفيده اللام، إذ المعنى: والله لقد رآه، ولو كانت هذه الرؤية وقعت في الأرض، مثل السابقة، لم يكن فيها ما يدعو إلى القسم.

2- جملة ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾"النجم: 16"، فإنها سيقت لبيان ما كان يغشى السدرة حين كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم هناك، وإلا لم يكن لذكرها هنا فائدة.

3- جملة ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[1] "النجم: 17"، فإنها تفيد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان عند السدرة ثابت الجنان، بحيث لم يزغ بصره، رغم ما رأى من الآيات العظيمة.

4- جملة ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾"النجم: 18"، الواقعة جواباً لقسم محذوف، وهي تفيد أنه رأى صلى الله عليه وآله وسلم هناك آيات كبرى، إلى جانب

1- من أول السورة إلى هذه الآية، نزه الله علم نبيه عن الضلال، وعمله عن الغي، ونطقه عن الهوى، وفؤاده عن التكذيب، وبصره عن الزيغ والطغيان، وأكد التنزيه المذكور بالإقسام عليه، وناهيك بذلك من رب العزة جل جلاله ثناء، قاله العلامة الصاوي.

رؤية جبريل عليه السلام وهذا واضح إلا أن مبتدعين جاهلين أبديا في الآية رأيين، يدرك سقوطهما بمجرد سماعهما، أما أحدهما فقال في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ، عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ، عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾"النجم: 13-15" والكلام صالح لأن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذه المرة، كان في الأرض أيضاً ورأى جبريل عند سدرة المنتهى، كما تقول: رأيت النجمة في السماء!!! وهذا يدل على جهله بعلوم البلاغة، كما دل كلامه السابق على جهله بالأصول، وقواعد اللسان العربي! وأما الثاني- وهو الذي أخذ من قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾"النجم: 11"، عدم وقوع المعراج- فقال في سدرة المنتهى: إنها شجرة في الأرض ينتهي إليها المسافرون وغيرهم، فيستريحون عندها!!! ثم أدركه الورع، ففوض علمها إلى الله تعالى!!.

تنبيهان:

الأوَّل: أول كثير من المفسرين الرؤية في الآيات المذكورة، على رؤية الله تعالى، ولكنا خالفناهم لسببين:

1- أن الحديث صرح بأنها رؤية جبريل عليه السلام، بصورته الحقيقية، وهو في الصحيح.

2- أن سياق الآيات لا يساعد على تأويلهم إلا بشيء من التكلف، نعم رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ربه تبارك وتعالى على الراجح عند أكثر العلماء؟ كما قال النووي، وصح ذلك عن ابن عباس وأنس وأبي ذر، وذهب إليه الحسن وكعب وأحمد ابن حنبل وابن خزيمة، وانظر تفصيل هذا الموضوع، مع الجواب عند نفي عائشة، في كتابنا (الأحاديث المنتقاة في فضائل سيدنا رسول الله).

الثاني: ذكر بعض المفسرين قصة الغرانيق في قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾"النجم: 19" الآية، وبعضهم ذكرها عند قوله تعالى في سورة الحج ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾"الحج: 52" الآية، وهي قصة باطلة، بينا بطلانها في (خواطر دينية) بما لا مزيد عليه.

39- سورة القمر

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾"القمر: 1" يفيد وقوع انشقاق القمر، وهو آية من آيات النبي صلى الله عليه وآله وسلم الظاهرة، ومعجزة من معجزاته الباهرة، قال أنس بن مالك: أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يريهم آية، "فأراهم انشقاق القمر" رواه الشيخان.

ورويا عن ابن عباس، قال: إن القمر انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال ابن مسعود: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنى، إذ انفلق القمر فلقتين، فكانت فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (اشهدوا) رواه الشيخان أيضاً، وقال ابن عمر: وكانت فلقة فوق الجبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (اللَّهُمَّ أشهد) رواه مسلم في صحيحه، وقال جبير بن مطعم: انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى صار فرقتين: على هذا الجبل وعلى هذا الجبل فقالوا: سحرنا محمد فقال بعضهم: لئن كان سحرنا، ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم، صححه الترمذي، والحاكم على شرط الشيخين، وسلمه الذهبي، وقال علي عليه السلام: انشق القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، رواه الطحاوي في مشكل

الآثار، وأنكر بعض المبتدعة انشقاق القمر، وأولوا ﴿وَانشَقَّ﴾ بأنه ينشق يوم القيامة وهذا رأي باطل، وتأويل عن التحقيق عاطل، وبيان ذلك من وجوه:

الأول: أن التأويل إنما يلجأ إليه، عند استحالة المعنى، أو تعذره وانشقاق القمر ليس بمستحيل، ولا متعذر.

الثاني: أن الصحابة الذين شاهدوه أخبروا بوقوعه كما سبق عنهم آنفاً.

الثالث: أن أنساً رضي الله عنه صرح أن الآية المذكورة نزلت بسبب حادثة انشقاق القمر رواه الترمذي، وقال حسن صحيح.

الرابع: أن قوله تعالى ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾"القمر: 2" يؤيد وقوعه أيضاً.

قال الزمخشري: وعن بعض الناس أن معناه ينشق يوم القيامة وقوله ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ يرده، وكفى به راداً. اهـ.

الخامس: أن أهل السنة أجمعوا على وقوع هذه المعجزة، تمسكاً بظاهر القرآن، وبصريح السنة الصحيحة، قال الحافظ ابن عبد البر: قد روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجم الغفير، إلى أن انتهى إلينا، وتأيد بالآية الكريمة، وقال القاضي عياض في الشفا: قال الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ، وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾"القمر: 1-2" أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرة عن آياته، وأجمع أهل السنة والمفسرون على وقوعه، وقال أيضاً في الشفا: أما انشقاق القمر، فالقرآن نص بوقوعه وأخبر عن وجوده، ولا يعدل عن ظاهره إلا بدليل، وجاء بنفي احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة، فلا يوهن عزمنا خلاف أخرق منحل

عرى الدين، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك على قلوب ضعفاء المؤمنين. بل نرغم بهذا أنفه، وننبذ بالعراء سخفه، أما قول من قال: لو وقع الانشقاق، لنقل متواتراً، واشترك أهل الأرض في رؤيته، ولم يختص به أهل مكة، فالجواب عنه من وجوه:

أحدها: أن الانشقاق وقع في الليل، ومعظم الناس نيام، وأبواب بيوتهم مغلقة وقل منهم من يتفكر في السماء، أو ينظر إليها، إلا الشاذ النادر، ومما هو مشاهد معتاد أن كسوف القمر من غيره من العجائب والأنوار الطوالع، والشهب العظام، وغير ذلك مما يحدث في السماء بالليل يقع، ولا يعلم به إلا الآحاد، ولا علم به عند غيرهم.

ثانيها: إن الانشقاق حصل آية لقوم اقترحوها، وطلبوا رؤيتها فلم يتنبه غيرهم لها، إذ لم يتحدد قبلها موعد وقوعها حتى يترصدها الناس كما ترصد أهل مصر معجزة عصا موسى حين حدد لوقوعها يوم الزينة، كما جاء في سورة طه.

ثالثها: أن القمر كان في ليلة الانشقاق، في بعض المجاري والمنازل التي تظهر لبعض الآفاق دون بعض، وهذا ضروري، كما يكون القمر ظاهراً لقوم غائباً عن آخرين، وكذلك يجد الكسوف أهل بلد دون بلد.

رابعها: أن أهل مكة بعثوا يسألون المسافرين والقادمين من البلاد الأخرى، فأخبروا أنهم شاهدوه منشقاً، ولذلك قالوا ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ "القمر: 2" أي قوي عم البلاد والناس.

خامسها: أن ملك بهوبال –واسمه بهوج بال- شاهد الانشقاق، ذكره الفريشته في تاريخه، بل شهده أيضاً ناس كثيرون من بلاد متعددة، كما في تاريخ ابن كثير.

سادسها: أن القرآن أخبر عنه، وهو منقول نقل تواتر، بتلقي جيل عن جيل، فالانشقاق منقول بأعلى تواتر وأقواه.

(تنبيه) قال الإمام الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة، لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماوات، خارجاً عن جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس فيما يطمع في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صادر البرهان به أظهر.

40- سورة الرحمن

توجه الخطاب فيها إلى الثقلين بالبشارة والإنذار، وهو من أدلة إرسال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليهما.

41- سورة المجادلة

كان اليهود يقولون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا سلموا عليه: سام عليكم، ويقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول! فأنزل الله تعالى يتوعدهم ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾"المجادلة: 8"، وهذا من دلائل عناية الله بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

أكثر المسلمون المسائل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى شقوا عليه، فأراد الله تعالى أن يخفف عنه، فأنزل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾"المجادلة: 12" الآية: فكف كثير منهم عن المسألة، بل لم يناجه بعد نزولها غير علي عليه السلام، كان عنده دينار: فصرفه دراهم، وناجى بها الرسول عدة مرات، ثم نسخها الله بالآية بعدها ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ

نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾"المجادلة: 13" الآية، ولذلك كان يقول آية في كتاب الله تعالى لم يعمل بها أحد قبلي، ولن يعمل بها أحد بعدي، وهي آية المناجاة وفيها دليل على أن الله تعالى يحب من المسلمين ألا يشقوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يضايقوه.

42- سورة الحشر

لما نزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببني النضير، وتحصنوا بحصونهم، أمر بقطع نخيلهم وتحريقها فنادوه: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ فأنزل الله تعالى ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾"الحشر: 5" وهذا يؤيد ما قدمناه في سورة الفتح: أن كل ما يصدر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بإذن الله ورضاه، ودعوى اليهود فساد التحريق والإتلاف، ردها الله بأن حكمته إخزاؤهم، لأنهم كفروا بالله ورسوله عن جحود وعناد، واتفقوا مع المشركين على عداوته وحربه.

43- سورة الصف

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾"الصف: 1"، يفيد أن عيسى عليه السلام، بشر بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بشارة صريحة وهذا معلوم للباحثين والدارسين في كتب الديانات، حتى أن المنصفين من المستشرقين يعترفون بذلك.

(لطيفة) كان أحد القسيسين إذا توسم في مسلم الجهل بالمسائل الدينية، ألقى عليه هذا السؤال: هل تؤمن بعيسى؟ فيجيب المسلم: نعم أؤمن به، لأن القرآن

أثبت رسالته فيقول القسيس إذن اتفقنا نحن وأنتم على الإيمان بعيسى، واختلفنا في محمد، فنحن لا نؤمن به فيكون عيسى أفضل من محمد، لأن المتفق عليه أفضل من المختلف فيه فلا يدري المسلم ما يقول؟ فألقى مرة على عالم ظنه جاهلاً سؤاله السابق: هل تؤمن بعيسى؟ فأجابه العالم: إن كنت تريد عيسى الذي بشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد فإني أؤمن به، وإن كنت تريد عيسى آخر، فلا أعرفه فانقطع القسيس، ولم يحر جواباً"[1].

ويناسبها ما ذكره المرتضى من أماليه: أن أبا الهذيل العلاف –في حداثته- بلغه أن يهودياً قدم البصرة. وقطع جماعة من متكلميها فقال لعمه: يا عم إمض بي إلى هذا اليهودي حتى أكلمه فقال له عمه: يا بني كيف تكلمه وقد عرفت خبره؟ وأنه قطع مشايخ المتكلمين؟ فقال: لا بد من أن تمضي بي إليه، فمضى به قال: فوجدته يقرر الناس على نبوة موسى عليه السلام فإذا اعترفوا له بها، قال نحن على ما اتفقنا عليه، إلى أن نجمع على ما تدعونه فتقدمت إليه، فقلت: أسألك؟ أم تسألني؟ فقال: بل أسألك فقلت ذاك إليك فقال لي: أتعترف بأن موسى نبي صادق؟ أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك؟ فقلت له: إن كان موسى الذي تسألني عنه هو الذي بشر بنبي عليه السلام وشهد بنبوته وصدقه فهو نبي صادق وإن كان غير من وصفت، فذلك

1- مما يناسب هذا ما ورد عن بعض العلماء أنه أسر ببلاد الروم، فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له، قال: فآدم أولى، لأنه لا أبوين له، قالوا: كان يحي الموتى، قال: فحزقيل أولى، لأن عيسى أحيا أربعة، وأحيا حزقيل ثمانية آلاف، قالوا: كان يبرئ الأكمه والأبرص، قال: فجرجيس أولى، لأنه طبخ وأحرق، ثم قام سالماً، ذكره في الكشاف عند الكلام على قوله تعالى﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾"آل عمران:59".

شيطان لا أعترف بنبوته فورد عليه ما لم يكن في حسابه، ثم قال لي أتقول: إن التوراة حق؟ فقلت: هذه المسألة تجري مجرى الأولى، إن كانت هذه التوراة التي تسألني عنها، هي التي تتضمن البشارة بنبي عليه السلام فتلك حق وإن لم تكن كذلك فليست بحق، ولا أقر بها فبهت وأفحم، ولم يدر ما يقول؟ ثم قال لي: احتاج أن أقول لك شيئاً بيني وبينك فظننت أنه يقول شيئاً من الخير، فتقدمت إليه، فسارني، فقال لي: أمك كذا وكذا –يعني زانية- وأم من علمك، لا يكنى وقدر أني أثب به، فيقول: وثبوا بي وشغبوا علي، فأقبلت على من كان في المجلس، فقلت: أعزكم الله، ألستم قد وقفتم على مسألته إياي؟ وعلى جوابي إياه؟ قالوا: بلى قلت: أفليس عليه أن يرد جوابي أيضاً؟ قالوا بلى قلت فإنه لما سارني شتمني بالشتم الذي يوجب الحد، وشتم من علمني وإنما قدر أنني أثب عليه، فيدعي أننا واثبناه وشغبنا عليه وقد عرفتكم شأنه بعد الانقطاع فانصروني، فأخذته الأيدي من كل جهة، فخرج هارباً من البصرة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾"الصف: 9" تقدم نظيره في سورة الفتح، وتقدم مثل هذه الآية في سورة التوبة، والحكمة في تكرارها تأكيد شرك أهل الكتاب، وأن دينهم منسوخ بدين الإسلام.

44- سورة الجمعة

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا

يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾"الجمعة: 1-2" يفيد استمرار، بعثته عليه الصلاة والسلام، وفضل الصحابة من بعدهم ببركة صحبته صلى الله عليه وآله وسلم.

45- سورة المنافقون

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾"المنافقون: 7"، دافع الله به عن الصحابة الذين هاجروا إلى المدينة، وكان الأنصار –وهم أهل البلد- يواسونهم- فنهاهم المنافقون عن ذلك، مؤملين أن ينصرفوا إلى شئون معايشهم وما يصلح حالهم فرد الله عليهم بأن خزائن السموات والأرض بيده تعالى، فهو متكفل برزقهم، لأنهم في صحبة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، قائمون بخدمته، باذلون أنفسهم في نصرة دينه"[1].

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾"المنافقون: 8" دفاع ثان عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك أن عبد الله بن أبي بن سلول، قال لإخوانه المنافقين، وهم راجعون من غزوة بني المصطلق، مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يقصد بالأذل المهاجرين، وبالأعز أنفسهم، فرد الله عليهم بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يدافع عن صحابة نبي غير نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، لكرامته عليه.

1- دافع الله عنهم أيضاً في سورة البقرة كما سبق التنبيه عليه.

(تنبيه) قوله ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ الآية. أصل في القول بالموجب ا لمعروف في مبحث القوادح من علم الأصول.

46- سورة الطلاق

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾"الطلاق: 1" الآية، قال الزمخشري: خص النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالنداء، وعم بالخطاب، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إمام أمته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت، إظهاراً لتقدمه، واعتباراً لترؤسه وأنه مدره القوم ولسانهم، والذي يصدرون عن رأيه، ولا يستبدون بأمر دونه، فكان هو وحده في حكم كلهم، وساداً مسد جميعهم. اهـ.
ومثل هذا قول الله تعالى حكاية عن فرعون ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾"الطلاق: 49" عمهما بالخطاب، وخص موسى بالنداء لأنه أفضلهما وأجلهما.

47- سورة التحريم

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾"التحريم: 1" يفيد أمرين.

أحدهما: تعظيم الله لنبيه، حيث ناداه بوصف النبوة، وقد نبهنا على هذا فيما سبق.

ثانيهما: عتابه على تحريم ما أحل له، ليرضي أزواجه، وهذا يشعر بعناية الله بنبيه، بحيث لا يحب له أن يضيق على نفسه، في سبيل إرضاء أي شخص، فكأنه يقول: لا تضيق على نفسك بتحريم سريتك، لترضي أزواجك، بل هن أحق أن يسعين في رضاك، ليسعدن، وانظر ما تقدم في سورة طه.

قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ يؤيد ما ذكرناه آنفاً، حيث إن الله تعالى يقول لحفصة وعائشة: إن تتوبا إلى الله فقد مالت قلوبكما لتحريم مارية، وسركما ذلك، مع كراهة النبي له، وذلك ذنب يستوجب التوبة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾"التحريم: 4" يؤيد أيضاً ما تقدم، ويدل على أن عناية الله بنبيه لم يرق إليها رسول ولا ملك، فما نعلم أن الله تعالى نصر رسولاً على أعدائه بهذه الصورة الرائعة التي وعد بها رسوله في هذه الحادثة، ولقد كان في نصر الله كفاية وغناء، لكنه سبحانه أراد أن يظهر مقدار حبه لنبيه، ورعايته لجانبه، فجند لنصره جبريل وصالح المؤمنين والملائكة! فهذه الآية دليل كافي على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل المخلوقات، وأحبهم إلى الله على الإطلاق.

48- سورة القلم

قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾"القلم: 1" إقسام من الله تعالى بالقلم وما يكتب به، على ما يأتي ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾"القلم: 2" هذا أول الأشياء المقسم عليها، وهو نفي الجنون الذي زعمه المشركون، وزيدت الباء في بمجنون، لتأكيد النفي.

والثاني ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾"القلم: 3" أي غير مقطوع لأنه ما من عمل خير يعمله أفراد أمته من الثقلين، منذ بعثته إلى يوم القيامة، إلا وله عليه أجر الهداية والتعليم، نقل القسطلاني في المواهب اللدنية، عن الإمام الشافعي، قال: ما من عمل يعمله أحد من أمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إلا والنبي أصل فيه، قال في تحقيق النصرة: فجميع حسنات المؤمنين، وأعمالهم الصالحة، في صحائف نبينا

صلى الله عليه وآله وسلم، زيادة على ما له من الأجر، مع مضاعفة لا يحصرها إلا الله تعالى، لأن كل عامل ومهتد إلى يوم القيامة، يحصل له أجره، ويتجدد لشيخه مثل ذلك الأجر، ولشيخ شيخه مثلاه، وللشيخ الثالث أربعة، وللرابع ثمانية وهكذا تضاعف كل مرتبة، بعدد الأجور الحاصلة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبهذا يعرف تفضيل السلف على الخلف، فإذا فرضت المراتب عشرة، بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كان له عليه الصلاة والسلام من الأجر ألف وأربعة وعشرون. فإذا اهتدى بالعاشر حادي عشر، صار أجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ألفين وثمانية وأربعين.

وهكذا كلما زاد واحد، يتضاعف ما كان قبله أبداً، كما قال بعض المحققين. قلت: وبيان ذلك بالتفصيل أن الشيخ الأول له أجر على التعليم، وللشيخ الثاني أجران، وللثالث أربعة، وللرابع ثمانية، وللخامس ستة عشر، والسادس اثنان وثلاثون، وللسابع أربعة وستون، وللثامن ثمانية وعشرون ومائة، وللتاسع –وهو التابعي- ستة وخمسون ومائتان، وللعاشر -وهو الصحابي- اثنا عشر وخمسمائة، وللنبي صلى الله عليه وآله وسلم أربعة وعشرون وألف"[1]، يضاف إلى هذا ما يناله من أجر عظيم، بصلاة الله عليه وملائكته والمؤمنين.

والثالث ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾"القلم: 4" وهذا أعظم مدح له عليه الصلاة والسلام، حيث إن الله تعالى أثنى عليه بعظمة خلقه، مؤكداً هذا الثناء بالقسم،

1- وأيضاً ما من معصية تقع إلا وله صلى الله عليه وآله وسلم ثواب النهي عنها والتحذير منها لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (ليس من عمل يقرب إلى الجنة، إلا قد أمرتكم به، ولا عمل يقرب إلى النار، إلا قد نهيتكم عنه) الحديث رواه الحاكم من حديث ابن مسعود وصححه.

وإن، واللام، وكون خبرها مجروراً بعلى المفيدة تمكنه من هذا الخلق العظيم، واستقراره عليه، وناهيك بخلق يشهد الله تعالى بعظمته ولله در القائل:

أيا مصطفى من قبل نشأة آدمٍ والكون لم تفتح له الأغلاق

أيروم مخلوق ثناءك بعدما أثنى على أخلاقك الخلاق؟!

49- سورة الحاقة

قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾"الحاقة: 38" أقسم الله بالأشياء كلها الخلق والخالق، النعم الظاهرة والباطنة، الأجسام والأرواح، الإنس والجن، الغيب والشهادة، الدنيا والآخرة ﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾"الحاقة: 40" هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يقوله على وجه الرسالة من عند الله.

وفي هذا دفاع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وثناء عليه، وقيل: الرسول الكريم هو جبريل عليه السلام.

قال الزمخشري وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ..﴾"الحاقة: 41"، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ..﴾ "الحاقة: 42" دليل على أنه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لأن المعنى على إثبات أنه رسول، لا شاعر ولا كاهن. قلت وقوله ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾"الحاقة: 43" دليل على ذلك أيضاً"[1].

1- وقد دفع الله عن نبيه هذا الاتهام أيضاً في سورة الطور فقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ بسبب إنعامه عليك بالنبوة وكمال العقل وعلو الهمة والعصمة ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾"الطور: 29" أي لست كاهناً ولا مجنوناً، ولكنك نبي معصوم مؤيد بالوحي ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾"الطور: 30" حوادث الدهر فيهلك كما هلك غيره من الشعراء ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ هلاكي ﴿فَإِنِّي

50- سورة الجن

تشتمل على الإخبار بسماع الجن للقرآن، ومدحهم له، وإيمانهم به، وأنهم اجتمعوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ليسمعوا منه الدعوة، وازدحموا حتى ركب بعضهم فوق بعض، وهذا يقتضي أنهم كانوا كثيرين، وقد قيل: كانوا اثنى عشر ألفاً، وقيل: سبعين ألفاً، فالعجب من بعض المبتدعة، حيث زعم في حديث له بالمذياع: أنه لا يوجد دليل قطعي على إرسال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الجن!!! وكيف غفل عن هذه السورة وسورتي الرحمان والأحقاف؟! وكيف فاته أن الله أمر نبيه أن يتحدى بالقرآن الإنس والجن؟! ولو لم يكن رسولاً إليهم، لكان ذكرهم في التحدي عبثاً لأن من المقطوع به أن الرسول يتحدى قومه خاصة، كما هو ثابت في قصة صالح وموسى وغيرهم مما سجله القرآن الكريم، وقد رددت عليه برسالة سميتها (قرة العين بأدلة إرسال النبي إلى الثقلين) أوردت فيها خمسة وعشرين دليلاً من الكتاب والسنة والإجماع، وذكرت بعض الصحابة من الجن، وخرجت بعض ما رووه من الأحاديث، ومنكر إرساله عليه الصلاة والسلام إلى الجن، كافر بلا نزاع.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾"الجن: 8-9" يفيد اعتراف الجن المؤمنين بأنهم كانوا يسترقون السمع قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنهم منعوا بعدها من استراق السمع، بالشهب المحروقة، والحرس الشديد من الملائكة، لأنه عليه الصلاة والسلام، بعث لإبطال الكهانة والتنجيم وغيرهما مما

مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾"الطور: 31" هلاككم وقد أهلكهم الله يوم بدر، والمقصود أن التهمة التي نفاها الله عن نبيه في الموضعين واحدة.

كان يعتقده العرب وغيرهم، وجاء لتنوير العقول، وهداية القلوب، فأيده الله بالملائكة والشهب، وغيرهم مما لم يعطه لنبي قبله.

51- سورة المزمل

نادى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الوصف"[1]" تسجلاً لحالته التي كان عليها حين رجع إلى خديجة رضي الله عنها، بعد أن نزل عليه في غار حراء، أول آية نزلت من القرآن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾"العلق: 1" الآية، وفؤاده يرجف، وقال (زملوني زملوني لقد خشيت على نفسي)"رواه البخاري ومسلم" فقالت له خديجة رضي الله عنها: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتعين على نوائب الحق، وقال عكرمة: معناه يا أيها الذي زمل أمراً عظيماً، أي حمله، ومن الحكمة في ندائه بهذا الوصف –إلى جانب ما ذكر- تأنيسه، وإزالة ما علق بقلبه من هيبة الوحي، وفي هذا من لطف الله، به، ورعاية جانبه، ما لا يخفى.

52- سورة المدثر

فتر الوحي نحو ثلاث سنوات، كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلالها، يعلو شواهق الجبال حزيناً مهموماً"[2]"، فنودي –وهو بغار حراء-: يا محمد أنت رسول الله

1- ذكر الزمخشري هنا كلاماً يخالف سبب النزول، ويدل على سوء أدب في حق الجناب النبوي الكريم، وقلده فيه البيضاوي من غير تبصر، ورد عليه العلامة ابن المنير، فأجاد.

2- جاء في بعض الروايات: أنه كان عليه الصلاة والسلام يعلو شواهق الجبال يريد أن يلقي نفسه، ويرجع حين يظهر له جبريل عليه السلام، وهذه رواية وقعت في البخاري مرسلة، فهي ضعيفة، وعلى فرض صحتها، فهمه صلى الله عليه وآله سلم بالانتحار، لا يعيبه لوجوه: أحدهما: أن الهم بالمعصية لا ينافي العصمة، وقد هم يوسف عليه السلام بقربان امرأة العزيز لكن لم يقربها لعصمته.

حقاً، وأنا جبريل، فرفع رأسه فإذا جبريل قاعد على عرش بين السماء والأرض فرعب، ورجع إلى خديجة رضي الله عنها، وقال (دثروني)"رواه البخاري ومسلم" فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ﴾"المدثر: 1-2" الآية، ويقال هنا: ما قيل في يا أيها المزمل، وفي الوضعين إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام، تزمل بالنبوة، وتدثر بالرسالة.

53- سورة القيامة

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ القرآن قبل فراغ جبريل من إلقائه، حرصاً على حفظه، وعدم نسيانه، فأنزل الله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾"القيامة: 16-19" وهذا يفيد أن الله تعالى لا يحب لنبيه أن يجهد نفسه بقراءة ما يلقيه عليه جبريل، فتجتمع عليه مشقة التلاوة، ومشقة تلقي الوحي فأمره باستماع ما يلقى إليه، وتكفل سبحانه بجمعه له في صدره، وتحفيظه إياه.

ثانيها: أن الانتحار لم يكن محرماً في ذلك الوقت، وإنما نزل تحريمه بعد ذلك في المدينة، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾"النساء: 29".

ثالثها: أن قتل الإنسان نفسه، شرع لبني إسرائيل في توبتهم من عبادة العجل، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾"البقرة: 54".

54- سورة عبس

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم جالساً مع زعماء من قريش يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يسلم بإسلامهم أتباعهم، فيتأيد الإسلام ويقوى، فدخل عليهم عبد الله ابن أم مكتوم الضرير، وقال: أقرئني وعلمني مما علمك الله، وكرر الطلب فكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم كلامه، لأنه قطع حديثه، وشغله عما كان يرجوه من إسلام أولئك الزعماء وابن أم مكتوم سمع كلامه معهم، وعرف اشتغاله بهم، فانصرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيته، ولم يعلمه عقاباً له على سلوكه، فأنزل الله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ، أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾"عبس: 1-4" الآية، وأتى بضمير الغيبة، تلطفاً بنبيه، وإجلالا له. وهذا يقتضي أن الله تعالى يعاتبه عتاب محبة ووداد، ويفهمه أن تجاوزه عن سلوك الأعمى وتعليمه، أولى من إتعاب نفسه مع أولئك الزعماء الذين أيأسه من إسلامهم في آية نزلت بعد هذه، فما أكرمه من خطاب!! وما أجمله من عتاب!! يتوجهان من المولى إلى سيد المقربين الأحباب! وفي الآية تأويل آخر، قرأته لبعض المعاصرين، وحاصله مع توضيح وتتميم: أن جملة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ، أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ حكاية لقول الكفار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم وجهوا الخطاب إليه على سبيل الاستهزاء ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ يقصدون أنفسهم ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ، وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ، وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾"عبس: 6-9" يقصدون الأعمى ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾"عبس: 10" إلى هنا انتهى كلامهم، قال الله تعالى يرد عليهم ﴿كَلَّا﴾"عبس: 11" لا تقولوا ذلك، فمحمد لا يُقبل على شخص لأجل غناه، ولا يعرض عن آخر لأجل فقره أو عماه، وهو تأويل حسن

جيد، يؤيده سياق الآية، فإن قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ، أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ يناسب أن يكون من كلام الكفار، قالوه تعييباً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، بما هو خلاف الواقع، لأنه لم يعبس لأجل مجيء الأعمى، ولكن لأجل قطع حديثه مع القوم، وقوله تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ يناسب أن يكون من كلامهم أيضاً، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يدري أن ابن أم مكتوم تزكى بالإيمان، وأنه يتذكر بما يسمعه من القرآن، إذ هو رضي الله عنه من قدماء المسلمين، وابن خالة خديجة رضي الله عنها أم المؤمنين، والقرآن يستعمل عبارة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ... لَعَلَّ﴾ فيما لا يدري، نحو ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾"الأحزاب: 63" ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾"الشورى: 17" والحديث الوارد في قصة ابن أم مكتوم، ضعيف رواه الترمذي عن عائشة، وقال: حديث غريب والآيات على هذا، من دفاع الله عن نبيه.

55- سورة التكوير

كان المشركون يعرفون النبي صلى الله عليه وآله وسلم –منذ نشأته بينهم- بالصدق والأمانة والوفاء ومكارم الأخلاق. لا ينكرون ذلك، ولا يحاولون إنكاره فلما أكرمه الله بالرسالة، حسدوه، واستنكفوا أن يتبعوه وقالوا: إنما يعلمه بشر، ورموه بالجنون هذا وهم يعلمون أنهم فيما أبدوه من الاتهام مخالفون لما يعرفون من أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم وصفاته فأنزل الله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ، وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾"التكوير: 15-20" وهذا رد لقولهم: يعلمه بشر، حيث أثبت أن القرآن نزل به جبريل عليه السلام، وأطنب في مدحه، ليبين

لهم أن السفير بينهما عظيم الصفات، كما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عظيم الصفات باعترافهم أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾"التكوير: 22" نفي لتهمة الجنون، وعبر بصاحبكم، تنبيهاً إلى أنهم –في اتهامهم له- مخالفون لما عرفوه عنه من رجاحة العقل، وهذا مثل قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾"الأعراف: 184" وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾"سبأ: 46" قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾"التكوير: 23" تأكيد لنفي الجنون عنه، إذ تفيد هذه الجملة إقسام الله تعالى على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى السفير الذي يأتيه بالوحي، رؤية حقيقية ليس عن جنون أطاف به، ولا عن نوبة إغماء أصابته، فهذه الآيات –كما ترى- أتت لنفي تهمتين، رددهما الكفار مرات، ولم تأت للمفاضلة بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجبريل عليه السلام، وقد وهم الزمخشري حيث فهم منها أفضلية جبريل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فشذ بهذا الفهم عن الإجماع"[1] وغفل عن الدلائل التي تقتضي أفضليته عليه

1- وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾"الأنعام: 50" لا يدل على أفضلية الملائكة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه قصد به الرد على المشركين الذين طلبوا منه مطالب على سبيل التعنت، حيث قالوا له: إن كنت رسولاً فنريد أن توسع علينا وتكثر أرزاقنا، وقالوا أيضاً: أخبرنا بما يحصل لنا في المستقبل حتى نتهيأ له ونجتنب ما يمكن اجتنابه مما يضرنا، وقالوا أيضاً: مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتزوج؟ فجاءت الآية رداً لهذه الأقاويل على هذا الترتيب، ردت قولهم الأول بقوله: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ التي

الصلاة والسلام، على جبريل وغيره، كإقسام الله بحياته، وصلاته عليه، وإنذار الملائكة في كتابه، وندائه بوصف التعظيم إلى غير ذلك مما تراه في موضعه من هذا الكتاب، ولو لم تكن إلا آية النصرة في سورة التحريم، لكان فيها الكفاية.

56- سورة البروج

أخرج البزار بإسناد رجاله ثقات عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾"البروج: 3" قال: الشاهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمشهود يوم القيامة، فذلك قوله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾"النساء: 41" وتنكير شاهد ومشهود، للإبهام في الوصف، كأنه قيل: وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما، قاله الزمخشري في الكشاف، وفي هذا من التنويه بنبينا صلى الله عليه وآله وسلم، ما لا يخفى.

57- سورة البلد

قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ، وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾"البلد: 1-2" يفيد إحلال مكة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان ذلك يوم فتحها، حيث أمر بقتل عبد الله بن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة، لأنه كان يكتب الوحي، ثم ارتد، وطعن في

يرزق منها عباده حتى أستطيع أن أوسع عليكم وأكثر أرزاقكم، وردت قولهم الثاني بقوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فأخبركم بالمستقبل الذي لا يعلمه إلا الله، وردت الثالث بقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تنكروا مني الأكل والمشي في الأسواق وتزوج النساء، وذيلت هذه الردود بقوله: إ﴿نْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي ما أنا إلا رسول بشر أتبع ما يوحى إلي فأبلغكم إياه، وهو توحيد الله وعبادته، فلا صلة للآية بالمفاضلة.

القرآن، وفي النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإحلال مكة المكرمة من خصوصياته عليه الصلاة والسلام، ولم تحل لنبي قبله.

وقيل في معنى ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ مقيم به، نازل فيه فكأنه تعالى عظم حرمة مكة، من أجل أنه صلى الله عليه وآله وسلم مقيم بها وقيل: معنى ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ ومن المكابدة والمشقة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد، كما يستحل الصيد في غير الحرم، عن شرحبيل قال يحرمون أن يقتلوا بها صيداً، ويستحلون إخراجك وقتلك، وفيه –على هذا- تثبيت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته صلى الله عليه وآله وسلم.

والمراد بقوله ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾"البلد: 3" رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن ولده، أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه، وحرم أبيه إبراهيم، ومنشأ أبيه إسماعيل، وبمن ولده، وبه والتنكير للمدح والتعظيم، وإيثار ما على من لإفادة معنى التعجب، كما في ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾"آل عمران: 36" قاله الزمخشري.

58- سورة الضحى

اشتكى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أياماً لم يقم فيها لصلاته، فقالت له أم جميل امرأة أبي لهب: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد قلاك، لم أره قربك منذ كذا، فنزل قوله تعالى ﴿وَالضُّحَىٰ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ "الضحى: 1-3" أقسم سبحانه على أنه ما ترك نبيه وما أبغضه، وهذا من كمال عنايته في رد ما قال المشركون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾"الضحى: 4" يفيد ما أعد الله له في الآخرة من الكرامات والعطايا، ويفيد بدلالة الإشارة أنه صلى الله عليه وآله وسلم يترقى دائماً، لأن اللحظة الآخرة خير له من الأولى، قال الزمخشري: فإن قلت كيف اتصل قوله ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ بما قبله؟ قلت: لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى، أن الله مواصلك بالوحي إليك، وأنك حبيب الله، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه، أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله، وشهادة أمته على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين، وإعلاء مراتبهم بشفاعته، وغير ذلك"[1] من الكرامات السنية.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾"الضحى: 5" وعد من الله تعالى بأن يعطيه فيرضيه وحذف مفعول يعطيك، ليعم أنواع العطاء، ومن الكمالات النفسانية، والعلوم الإلهية، وظهور الأمر، وإعلاء الدين، والنصر على الأعداء، والشفاعة، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا معطيه سبحانه وتعالى"[2].

1- مثل شفاعته للعصاة من أمته في عدم دخول بعضهم النار، وفي إخراج بعضهم الآخر منها، الزمخشري لا يقول بهاتين الشفاعتين؛ لأنه معتزلي، وأهل السنة مجمعون على إثباتهما، ودلائل الكتاب والسنة المتواترة تؤيدهم.

2- وقال الزمخشري: موعد شامل لما أعطاه في الدنيا من الفتح والظفر بأعدائه يوم بدر، ويوم فتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، والغلبة على قريظة والنضير وإجلائهم، وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن، وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة، وأنهبهم من كنوز الأكاسرة، وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب، وتهيب الإسلام، وفشو الدعوة واستيلاء المسلمين، ولما ادخر له من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلا الله ا.هـ.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾"الضحى: 7" معنى الضلال هنا عدم المعرفة، يقال: ضللت الدار، أي لم أعرفها والمعنى: أنه لم يكن يعرف الشريعة، فهداه الله إليها بالوحي وهذا كقوله تعالى ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾"الشورى: 52" أي ما كنت تدري القرآن، ولا شرائع الإيمان.

قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾"الضحى: 10" أمر له عليه الصلاة والسلام أن يحدث أمته بما أنعم الله عليه، ليعرفوه ويعتقدوه ويزدادوا حباً له وتعظيماً، فالتحدث بالنعمة في حقه واجب، وفي حق غيره من أفراد الأمة جائز، إذا أمن العجب والرياء.

59- سورة ألم نشرح

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يفيد أن الله تعالى شرح صدر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بنوره الإلهي، ليسع مناجاة الحق، ودعوة الخلق، وليكون مهبط الرحمات وموضع التجليات، قال الزمخشري: معنى شرحنا لك صدرك: فتحناه حتى وسع هموم النبوة، ودعوة الثقلين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ المراد بالوزر عبء التبليغ، وثقل الدعوة كان الاهتمام بهما، يقض مضجعه، حتى سهلهما الله تعالى عليه، ويسرهما له فإطلاق الوزر من باب الاستعارة التصريحية، كما هو معلوم، وفي قراءة ابن مسعود: وحللنا عنك وقرك، والوقر الحمل، وهذه القراءة تؤيد ما قررناه.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾"الشرح: 1-4" يفيد أن الله تعالى رفع ذكر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، فبشر به في الكتب السابقة، وأخذ عهداً على الأنبياء أن يؤمنوا به، وينصروه إن ظهر في زمانهم، وقرن اسمه باسمه تعالى في الأذان والإقامة

والتشهد في الصلاة، وفي خطب الجمعة والعيدين وفي خطبة النكاح، وفي الشهادة التي لا يكون الشخص مسلماً إلا إذا نطق بها، وجعل الصلاة عليه عبادة فرضها على المسلمين.

(تنبيه) قال العلامة الصاوي: لو أن رجلاً عبد الله تعالى، وصدق بالجنة والنار وكل شيء، ولم يشهد أن محمداً رسول الله، لم ينتفع بشيء، وكان كافراً وهذا إجماع، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)"1".

60- سورة البينة

كان الكفار من أهل الكتاب وعبدة الأصنام يقولون –قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم-: لا نترك ما نحن عليه من ديننا حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، فلما بعث صلى الله عليه وآله وسلم، حسدوه وأنكروه وتفرقوا عنه، فحكى الله عنهم ما كانوا يقولونه ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

1- هذا الحديث يفيد أن عقاب الآخرة موقوف على بلوغ الدعوة، وقد بينا في (خواطر دينية) أن إبلاغ الدعوة واجب يقوم به كل مسلم في حدود طاقته، لكن يقع معظمه على عاتق الحكام والعلماء والأغنياء، فهم المسئولون قبل كل أحد عن تأليف جماعات وإمدادها بما يلزم للتبشير بالإسلام في جميع بقاع العالم، وإن مشكلة الملونين في أمريكا وجنوب إفريقيا، ومشكلة المنبوذين في الهند، لا تجد الحل العادل السليم إلا في الإسلام، دين الأخوة والمساواة والسلام العام.

﴿الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾"[1]" عما هم عليه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾"البينة: 1" الحجة الواضحة، وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿رَسُولٌ﴾ بدل من البينة ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾"البينة: 2" من الباطل ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾"البينة: 3" فيها أحكام مكتوبة مستقيمة ناطقة بالحق والعدل ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾"البينة: 4" وهذا كقوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾"البقرة: 89" ومن قال: إن المراد برسول هنا جبريل عليه السلام فقد أخطأ خطأ كبيراً، لأن جبريل لم يتل عليهم صحفاً ولا غيرها، ولأنه أيضاً لم يكن موصوفاً لهم في التوراة والإنجيل باسمه ونسبه وبلده ومهاجره.

61- سورة الكوثر

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾"الكوثر: 3" يفيد تشريف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا العطاء الذي أُكد بإن، وبنون العظمة، والكوثر نهر في الجنة كما ثبت به الحديث في صحيح مسلم، وهو من خصوصياته صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل في معنى الكوثر أقوال كثيرة، تركناها لأمرين:

1- أنا لا نعدل بالحديث الصحيح غيره.

1- تأمل هذه الآية، تجدها سلكت أهل الكتاب والمشركين في نظام، ووسمتهم جميعاً بسمة الكفر؛ لأن أهل الكتاب اتفقوا على الكفر بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، واليهود كفروا أيضاً بعيسى، والنصارى ألهوه، وبعض الناس يعتقد أن الكافر هو الذي ينكر وجود الله تعالى، وهذا الاعتقاد خطأ، والصواب – لغة وشرعاً- أن الكافر يطلق على الأصناف المذكورة كلها؛ لأن المشرك كفر بوحدانية الله، وأهل الكتاب كفروا برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومنكر الله كفر بوجوده، واسمه الخاص به: ملحد.

2- أن تلك الأقوال متداخلة، ولا تفيد فائدة جديدة، وأقربها إلى الإفادة، قول من قال: الكوثر الخير الكثير، وهو قول ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾"الكوثر: 3" رد لقول المشركين في النبي صلى الله عليه وآله وسلم- حين مات ولده القاسم-: بتر محمد، ولذا جاء مؤكداً بإن، وضمير الفصل، وتعريف الأبتر، وذلك يفيد حصر البتر في شانئه أي مبغضه عليه الصلاة والسلام، وهذه السورة نزلت لتسليته صلى الله عليه وآله وسلم، وبيان ماله عند مولاه من المنزلة التي ليس فوقها منزلة.

وقال الزمخشري في تفسير هذه السورة– بعد حكاية الخلاف في معنى الكوثر والصلاة والنحر-: والمعنى أعطيت ما لا غاية لكثرته من خير الدارين الذي لم يعطه أحد غيرك، ومعطي ذلك كله أنا إله العالمين، فاجتمعت لك الغبطتان السنيتان: إصابة أشرف عطاء وأوفره، من أكرم معط، وأعظم منعم، فاعبد ربك الذي أعزك بإعطائه وشرفك وصانك من منن الخلق، مراغماً لقومك الذين يعبدون غير الله، وانحر لوجهه وباسمه إذا نحرت، مخالفاً لهم في النحر للأوثان، إن من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم هو الأبتر، لا أنت، لأن كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين، فهم أولادك وأعقابك، وذكرك مرفوع على المنابر والمنائر، وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر، يبدأ بذكر الله، ويثني بذكرك، ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف، فمثلك لا يقال له أبتر، وإنما الأبتر هو شانئك المنسيُّ في الدنيا والآخرة، وإن ذكر، ذكر باللعن.

62- سورة النصر

بشر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في هذه السورة بنصره على أعدائه، وفتح مكة له، وأمره بالتسبيح والاستغفار"1"، استعداداً للقاء مولاه، و تهيؤاً تهيئوا لما أعد له من أنواع الكرامات عنده سبحانه وتعالى.

63- سورة تبت

لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾"الشعراء: 214" خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى البيت ونادى بطون قريش، فاجتمعوا له، فأنذرهم عذاب الله، وحذرهم عقابه، فقال له عمه أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى هذه السورة، يخبر بهلاكه وهلاك زوجه، ولم يفرد الله سورة لذم أحد بالتعيين سواهما، وذلك لشدة عداوتهما للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكثرة إيذائهما له"2".

1- يؤخذ من هنا فضل التسبيح والتحميد والاستغفار، حيث أمر الله به في مقابلة شكر نعمة الفتح والنصر، كما يؤخذ أيضاً أن من حكم الاستغفار أن يكون شكراً على نعمة، فتضاف هذه الحكمة إلى حكمه التي بيناها في سورة النساء.

2- يجتنب كثير من الناس هذه السورة في الصلاة معتقدين كراهة قراءتها؛ لأنها تذم عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا شيء لا أصل له، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يضيره ذم عم كان أكفر قريش بالله، وأشدهم عداوة لرسوله، ويعجبني في هذا المقام صنيع الزمخشري – حين تكلم على ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾"المسد: 4" وحكى القراءتين برفع حمالة ونصبه، ووجه القراءة الثانية بأن النصب على الشتم- فإنه قال: وأنا أستحب هذه القراءة، وقد توسل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجميل، من أحب شتم أم جميل ا.هـ، وكذلك أقول: قد توسل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسبب، من أحب ذم أبي لهب.

64 و65- سورتا المعوذتين

لجأ اليهود إلى السحر"[1]" آخر حيلة لهم في محاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسحره لبيد بن الأعصم اليهودي، ليعقده عن زوجاته، وذلك يؤدي في نظرهم إلى إتعاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيته، وإسقاطه في نظر نسائه، وربما يطلبن الطلاق من رجل لا يقوم بالوظيفة الزوجية، وظل صلى الله عليه وآله وسلم معقوداً

1- السحر نوعان:

نوع يتسلط على قلب الشخص أو عقله، فيورث عنده وسوسة أو خبلاً، فيتخيل أموراً لا وجود لها، ويعتقد أشياء لا حقيقة لها، وهذا النوع مستحيل في حق الأنبياء عليهم السلام، لقيام الدليل العقلي القاطع على عصمتهم من تسلط شيء على قلوبهم أو عقولهم، ونوع يتسلط على بدن الشخص فقط، مثل ربطه عن زوجه، فلا يقدر على إتيانها مع تمام صحته، وهذا النوع جائز في حق الأنبياء؛ لأنه من الأمراض البدنية التي لا تمس مكانتهم، ولا تنقص قدرهم، وهذا هو الذي حصل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد ثبت في رواية للبخاري في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، ومعنى كلامها: أنه عليه الصلاة والسلام كان يرى أن له قدرة على اتيان النساء كسابق عادته، ولكنه إذا أراد المباشرة لا يأتيهن لعدم القدرة عليه، فهو مرض بدني لا علاقة له بالقلب ولا بالعقل، وهذا مثل الحمى، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يمرض بها، لكنه معصوم من خطرفتها وهذرها، فكان تسلطها مقصوراً على بدنه، والمشركون حين قالوا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾"الفرقان: 8" قصدوا النوع الأول، يريدون أنه مغلوب على عقله، يتخيل أنه يوحى إليه وأنه رسول.. إلخ، وهذا كما قالوا عنه: ساحر وشاعر وكاهن، ولهذا رد الله كلامهم فقال لنبيه: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾"الإسراء: 48" إلى الحق الذي ضلوا عنه، ونظير هذا قول فرعون في موسى ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾"الشعراء: 27".

عن أهله، وهو في تمام صحته، لا يدري ماذا جرى له؟ حتى نزلت هاتان السورتان، وأخبره جبريل عليه السلام بما حصل له فقرأهما وحل عقد السحر المعمول له، وعاد إلى سابق نشاطه في قربان أهله، وتم نصر الله تعالى له ظاهراً وباطناً، ورفع منزلته حساً ومعنى، فلم يكن أفضل منه عند مولاه رسول ولا ملك، ولم يكن أقرب منه كليم ولا خليل صلى الله عليه وآله وسلم كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

خاتمة

بعد الانتهاء من ذكر الآيات الواردة في فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتكريمه، نلخص منها في هذه الخاتمة المزايا أي الخصائص التي اقتضت أفضليته على الأنبياء والمرسلين والملائكة، لأنها لم تجتمع لأحد سواه، وهي نوعان: نوع يتعلق بشخصه، ونوع يتعلق بأمته، أو ببعض أفرادها لأجله عليه الصلاة والسلام.

فمن النوع الأول: دفاع الله عنه بمختلف الأساليب، حسبما نبهنا عليه فيما مر، تبشير الأنبياء به، أخذ الميثاق عليهم أن يؤمنوا به وينصروه، إعطاؤه أمنيته قبل السؤال، قتال الملائكة معه، نصره بالرعب يلقى في قلوب أعدائه، إيجاب طاعته، وجعلها مثل طاعة الله، طلب الله منه أن يعفو عن أصحابه ويستغفر لهم، اتباعه سبب في محبة الله تعالى وغفرانه، تسليته عن تكذيب الكفار له، الطعن فيه طعن في الدين، نفي الإيمان عمن لم يسلم لحكمه تسليماً، تنبيه الله له على الخطأ قبل الوقوع فيه، ومن ثم كان لا يخطئ، حتى فيما يهم به، شهادة الله له بالتبليغ، نداؤه وذكره بوصف النبوة والرسالة، وجوده منع الخسف والمسخ والقذف، وصفه باسمين من أسماء الله تعالى، بل بأكثر"[1]" إيتاؤه القرآن العظيم، حفظ الله له من التبديل والتحريف، إقسام الله بحياته، كفايته المستهزئين به، إسناد بيان القرآن إليه، إعطاؤه

1- ووصف خليله باسم واحد قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾"التوبة: 114" ووصف به إسماعيل أيضاً ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾"الصافات:101" كذلك وصف كليمه باسم واحد ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾"الدخان: 17" ووصف نوحاً باسم واحد أيضاً (إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾"الإسراء: 3" ووصف إسحاق باسم واحد أيضاً ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾"الذاريات: 28"، هذا آخر التعليقات والحمد لله رب العالمين.

المقام المحمود، إعجاز القرآن للثقلين، عتابه لجبريل واعتذار الملائكة في كتابه الذي هو القرآن، تحريم ندائه باسمه أو كنيته، إرساله رحمة للعالمين، يسر دينه، عموم رسالته، وجوب إيثاره بالنفس، ختمه للنبوة، زواجه بالهبة وبدون صداق، عدم وجوب القسم عليه بين نسائه، حرمة إيذائه ولو مباح، صلاة الله وملائكته عليه، أمر المؤمنين بالصلاة عليه، حرمة التقدم بين يديه بقول أو فعل، حرمة رفع الصوت فوق صوته، حرمة الجهر له بالقول في الكلام معه، تزكية الله له جملة وتفصيلاً كل ما يصدر عنه بإذن الله ورضاه، تجنيد الله لنصرته على زوجيه جبريل وصالح المؤمنين والملائكة، ثناء الله عليه بعظمة خلقه، أجره على التبليغ مستمر لا ينقطع، إحلال مكة له عام الفتح، دوام ترقيه، شرح صدره، لتلقى التجليات، رفع ذكره، إعطاؤه الكوثر، إلى غير ذلك.

ومن النوع الثاني: دفاع الله عن صحابته، شهادة أمته على الناس يوم القيامة، رفع الخطأ والنسيان والحرج عن أمته، إحلال الغنائم لهم، تفضيلهم على الأمم، تبرئة زوجه ببضع عشرة آية، أزواجه أمهات المؤمنين، تحريم نكاحهن من بعده، يؤتين أجرهن مرتين، الثناء على صحابته في التوراة والإنجيل.

هذه بضع وستون ميزة، خص الله بها نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وهي في القرآن الكريم، وقد ثبتت خصائص أخرى، في الأحاديث الصحيحة والحسنة، تضارع هذا العدد، ومن أراد استيفاءها فليراجع كتاب (الخصائص الكبرى) للحافظ السيوطي، فقط استوعبها استيعاباً بالغاً، إلا أنه لم يقتصر على الأحاديث الثابتة، بل حشر فيها كثيراً من الأحاديث الضعيفة والواهية، وبعض الموضوعات،

ناسياً ما التزمه في خطبة الكتاب، من صونه عن الواهي والموضوع، وفي نيتي أن ألخصه بتجريد ما فيه من الأحاديث الصحيحة والحسنة، وطرح ما عداها.

وفق الله إلى ذلك وأعان عليه، بل شرعت فيه، وكتبت منه جملة صالحة، تجئ في قدر ثلثه، لكن حال دون إتمامه عروض هذه المحنة، عجل الله كشفها.

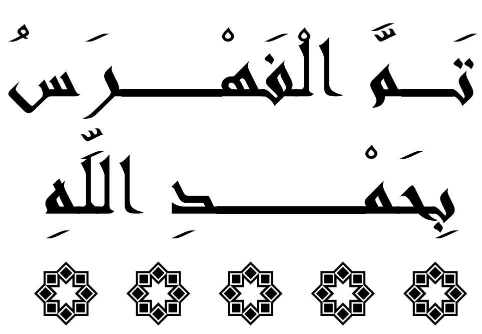
وكان الفراغ من تسويد هذا الكتاب بعد عصر يوم السبت السابع والعشرين من شهر ربيع النبوي سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وألف، وتم تبييضه بعد عصر يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر ذي القعدة الحرام، من السنة نفسها.

والله المسئول أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وسبباً لنيل شفاعة نبيه في الموقف العظيم، وأن يفرج كربتنا، ويستر عورتنا، والحمد الله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على نبيه بداية ونهاية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



فَهْـــرَسُ الْمَـــوْضُـــوعَـــاتِ

اَلْمَـــوْضُـــــوعُ:


تَـمَّ الْفَهْـــرَسُ
بِحَمْــــــدِ اللّهِ

إصدار



المركز الوطني للبحوث والدراسات

التابع لآل البيت ـ فلسطين

الموقع الالكتروني:www.alalbait.ps

ISBN 978-9938-912-14-2

